

٢
سلسلة رؤى معاصرة

السنة الأولى - العدد رقم ٢ - ذو الحجة ١٤٢٨هـ - يناير ٢٠٠٧م

الغرب أصل الصراع

عامر عبد المنعم



وكيل التوزيع في منطقة الخليج العربي
هاتف: ٩٦٦١٤٥٤٦٨٦٨+
sales@albayan-magazine.com



[٢]

سلسلة رؤى معاصرة

الغرب أصل الصراع

عامر عبد المنعم

المركز العربي للدراسات الإنسانية:
القاهرة –١ أ شارع رفاعة متفرع من
الخليفة المأمون – مصر الجديدة

www.arab-center.org
mail: info@arab-center.org

هاتف: ٤٥٤٩٥٥٧ ٢٠٢+
فاكس: ٤٥٤٩٥٥٧ ٢٠٢+
نقال: ٠١٠٥١٢٥٩٥٦ ٢٠+

رؤى معاصرة:

سلسلة دورية استراتيجية تهتم بتقديم رؤى استشرافية وبحثية لصناع القرار والمثقفين في العالم الإسلامي. يتركز اهتمام «رؤى معاصرة» في التحديات الفكرية والاستراتيجية والسياسية التي تواجه الأمة الإسلامية سواء على المستوى الداخلي، أو في علاقات الأمة مع الدول والشعوب غير المسلمة، أو على مستوى الرؤى الفكرية والحضارية الخاصة بمستقبل العالم الإسلامي.

مجالات الاهتمام:

تهتم «رؤى معاصرة» بمجموعة محددة من المشكلات والقضايا التي يمكن أن تنحصر في التالي:

* تقديم دراسات تحليلية لقضايا واقعية ملحة تشغل اهتمام صانع القرار الإسلامي.
* عرض حلول عملية لمشكلات معاصرة في مجالات الفكر والاستراتيجية والسياسة.
* تعريف بقضايا أو مشكلات جديدة على ساحة العمل الإسلامي.
* طرح رؤى جديدة متميزة وعملية حول بعض المشكلات والقضايا المعاصرة.

الموزعون:

مصر: المركز العربي للدراسات الإنسانية – القاهرة: ١ أ شارع رفاعة متفرع من الخليفة المأمون - مصر الجديدة -.هاتف: ٤٥٤٩٥٥٧ فاكس: ٤٥٤٩٥٥٧

الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩، هاتف: ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦.

سلطنة عمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص. ب ٤٧٣ - العذيبة ١٣٠ - هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ - فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠.

البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف - المنامة: ص. ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ - ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.

السعودية: الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ - فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.

السودان: الخرطوم، دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع، هاتف: ٧٩٣٢٨٣ - فاكس: ٧٩٣٢٨٤ - ص. ب ١١١٦٦ الخرطوم.

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.

قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.

الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع: ص. ب: ٢٩١٢٦ - الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ - هاتف ٢٤٠٥٣٢١ - ٢٤١٧٨١٠ - فاكس: ٢٤٧٨٠٩.

المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ - هاتف ٤٠٠٢٢٣ - فاكس: ٢٤٦٢٤٩.

اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء: ص. ب: ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ - فاكس: ٤٠٥١٣٥.

مقدمة

تعانـي الأمة الإسـلامية من حـروب متواصلـة، واجتياحـات لا تتوقف من قِبَـل الغرب. وأصبـح الصدام والعداء هو الأصل في تعامل الغرب مع الإسـلام. هذه العلاقة المختلة لم تستقم منذ غياب الخلافة الإسلامية، وحتى الآن. فالغرب يتوحد في اعتداءات متكررة ضد المسـلمين، وفي المقابل تَسَـبَّبَ التمزق والانقسـام وغياب الوحدة الإسلامية في إضعاف العالم الإسلامي وخضوعه للهيمنة الغربية.

رفـض الغرب كل المبادرات لإقامة علاقة متوازنة، وفشـلت كل محاولات التعايش التي سـعى إليها بعض المسلمين، بسـبب تغيُّر ميزان القوة بين الجانبين. اختار الغربيون –دوماً– الحرب، أو التلويح بها كوسيلة مفضلة للسيطرة على الشعوب المسلمة، وارتكبوا كل الفظائع لاستمرار الهيمنة على الجسد الإسلامي الذي مزقوا وحدته، وقسموه عشرات الأجزاء.

اسـتطاع الغـرب أن يحقق أهدافه باسـتغلال نقاط الضعـف في الأمة، عبر دراسـة كل ما يتعلق بها بشـكل دقيق، منذ ظهور الحكم الإسلامي وحتى الآن، وهذه المعرفة ساهمت في إدارة الغرب للصراع مع المسـلمين بنجاح؛ لكونها بُنيـت على علم ودراية. في المقابل فإن المسلمين – خاصة مع ضعف الدولة الإسلامية وانهيار الخلافة – لم يقوموا بدراسة الغرب دراسـة حقيقية تسـاعد على وضع اسـتراتيجيات قائمة على أسـس واقعية وعلمية وشرعية لتوجيه الأمة نحو تصور شامل للمواجهة.

المتابع لتاريخ العلاقة بين الغرب والإسـلام يجد أن دراسـات الاستشـراق وما قبلها من محاولات التعرف على العالم الإسلامي ليست مجرد مبادرات فكرية فردية معزولة ارتبطت بظـروف تاريخية محددة، أو أنها توقفت عند مرحلة زمنية معينة، فهذا التوجه نحو اكتشـافنا والوقوف على أدق التفاصيل في مجتمعاتنا مسـتمر حتى اليوم، وهو جزء من منظومة شاملة لمواجهتنا بأساليب متنوعة وتحت مسميات متعددة لمنع عودة الوحدة الإسلامية مرة أخرى. أجيال تسلم أجيالاً ؛ كل هدفها عدم قيام دولة المسلمين.

ومن أجل استمرار الهيمنة يوجد في الغرب وفي بلادنا آلاف المراكز والهيئات الحكومية وغيـر الحكوميـة لدراسـة العالم الإسـلامي، ولم تتوقـف طوابيـر الباحثيـن والخبراء عن التدفق على المدن والقرى لتشـريحنا، ودراسة كل ما يتعلق بالإنسان المسلم والمجتمعات

الإسلامية. إنهم يتعاملون معنا بناء على خطط مرسومة وموضوعة سلفاً، قائمة على قواعد بيانات تم جمعها عبر مئات السنين.

إن المسلمين -بسبب الفرقة، ولغياب الرأس الواحدة- لم يجتمعوا على أسباب الخلل في العلاقة بين الجانبين. فإذا سألت عشرة أشخاص في أي دولة سؤالاً واحداً، عن سبب الحروب التي يشنها الغرب على المسلمين، ستكون هناك عشر إجابات وليست إجابة واحدة، وستجد أشخاصاً لهم توجه فكري واحد يختلفون في التشخيص، بل ستجد من يرى أن المسلمين هم الطرف المدان والجاني وليس الدائن والمجني عليه، رغم ما يُفعل بهم من قتل وإبادة.

لقد أوجد غياب الدراسات والبحوث عن الغرب فراغاً، أعطى فرصة للمناوئين للأمة كي يضخوا أكاذيب وآراء مغلوطة، تقود في المجمل لتحسين صورة الغرب وتجميله وإظهاره على غير صورته العدائية.

من هنا فإن هذا البحث يتناول الأسباب الحقيقية التي تدفع الغرب دوماً للعدوان وشن الحروب واللجوء إلى مصارعة خصومه وإبادتهم. ويخوض هذا البحث في الخلفية التاريخية والفكرية لهذه النزعة العدائية للغرب، ومعرفة مصادر هذا الشحن المحب لتدمير الآخرين، والذي جعل نزعة العدوان الغربية أكبر خطر يهدد البشرية.

تؤكد دراسة التاريخ أنه لا توجد حضارة سعت إلى إفناء واستئصال الحضارات الأخرى مثلما فعلت الحضارة الغربية. فقد جعلت فكرةُ الصراعِ الغربَ في مواجهة مستمرة مع باقي شعوب الأرض، وفي خصام دائم مع الكون. وتطورت فكرة الصراع عبر تاريخ الغرب، وأخذت أبعاداً مختلفة وفق كل نقلة حضارية. تلونت هذه الفكرة بألوان عديدة من المشروعية عبر ثلاث مراحل مختلفة. لعبت كل مرحلة دوراً في إعطاء المرجعية لهذه النزعة الصدامية. فقد أعطت الحضارة الإغريقية، وهي أقدم حضارة أوروبية بعداً فكرياً للصراع وتأصيله، ثم جاءت الحضارة الرومانية لتضفي المشروعية السياسية للصدام مع الآخر والقضاء عليه، ثم منحت المسيحية الغربية التي اعتنقها الرومان وتوارثها الغربيون بعد ذلك مرجعية أخلاقية لهذه الروح، وإعطاء المبادأة بالعدوان صفة العدالة فيما عُرف بنظرية «الحرب العادلة» التي أثرت في الحضارة الغربية الحديثة وكانت وراء فكر الإبادة.

يتنـاول هـذا البحث الدور الذي لعبه حب الصراع في تشـكيل الفكـر الغربي، ويتتبع هذه الفكرة الصدامية منذ نشوء الحضارة على أرض أوروبا، وكيف كانت مكوناً أساسياً في الفكر والوجدان الغربي منذ القدم وحتى اليوم.

يركـز البحـث على علاقة الغرب مع الإسـلام منـذ البدايـات الأولى للدولة التـي أقامها الرسـول محمد صلى الله عليه وسـلم، ويسـتعرض حـروب الغرب مع المسـلمين، والتي أخذت ثلاثة أشـكال متنوعة عبر التاريخ المعاصر، وهي الحروب الصليبية ثم الاستعمارية، وأخيراً الحروب الاستباقية.

يوضـح البحـث أن تصدير الغرب للدمار في حروب ضد شـعوب العالم قد ولَّد الكراهية وردودَ أفعال انتقامية مصحوبة بتوسـع حركة الجهاد في العالم الإسـلامي، وتشكيل كيانات مضادة أوقعت خسـائر في جيوش الغرب، فاقت توقعات الغربيين أنفسـهم. وستدفع حركة المقاومة المضادة الغربَ إلى التفكير في التراجع والتقهقر بعد فشل ترسانتهم العسكرية في كسـر «الإرادة» الإسـلامية الصاعدة، والتي ساهم العدوان الغربي في نموها واشتداد عودها وإحياء عقيدة الجهاد. والجهاد -كما هو معلوم- فريضة إسـلامية؛ وهو ينقسم إلى قسمين: جهـاد الدفع ، وجهاد الطلب. جهاد الدفع لرد العدوان، وجهاد الطلب لإزاحة العراقيل التي تمنع توصيل الإسلام إلى الشعوب ولنشر الدعوة .

يدور البحث على ثمانية محاور:

الأول : الغرب وفكرة الصراع، وهو قراءة تاريخية لروح الصراع في الحضارات الأوروبية، القديمة والوسيطة والحديثة. ودور الفهم الغربي في تطويع المسيحية لخدمة الصراع.

الثاني: التعارك مع الأشـقاء واسـتنزاف الـذات، وهذا المحور يوضـح تأثير الصراع على الأوروبييـن في تعاملهم مع بعضهم البعض، وتسـببه في حـروب دموية لم يحدث مثلها في منطقة أخرى من العالم.

الثالث : انتقـال عقلية الصراع إلى العالم الجديد (الأمريكتين)، وفيه توضيح لتطور فكرة الصراع إلى أشكال أكثر عدائية مثل الرغبة في الإبادة والقضاء على الآخرين.

الرابع: المستقبل وسيادة فكرة الصراع، وهذا المحور يلقي الضوء على التفكير السوداوي في رؤية الغرب للمسـتقبل؛ إذ يعتقد الغربيون أنه سيشـهد حروباً كونية وصدامات تستخدم فيها أشد الأسلحة فتكاً.

الخامس : العلاقة مع الإسلام، وهو يوضح أن الغرب هو الذي بدأ الصدام مع ظهور النبي صلى الله عليه وسلم، وإعلان العداوة للدين الجديد منذ اليوم الأول.

السادس: الغرب وتصدير الصراع، يتناول هذا المحور الحروب التي شنَّها الغرب ضد المسلمين والعالم، وما سببته من إشاعة العداوات وتهديد الأمن في العالم.

السابع : حصد الكراهية وظاهرة الانتحار، يبين هذا المحور نتيجة حروب الغرب ضد المسلمين والعالم، ودورها في شيوع الكراهية للغرب؛ مما ساهم في تقوية رد الفعل المقاوم الذي بدأ يتسع ويخرج عن نطاق السيطرة الغربية.

الثامن : الغرب ومرض الصراع، يشخص هذا المحور الداء ويقف على حقيقة مرض الغرب ويطرح بعض الحلول للعلاج.

أهمية هذا البحث أنه يلقي الضوء على روح الصدام والصراع في العقلية الغربية. وتوضيح أن الغرب لا يعرف الحوار المتكافئ ويميل إلى الصدام والحرب، بدافع من عقيدته وحضارته التي على الرغم من كل ما أنتجته من إنجازات مادية وتقنية؛ فإن القتل وتدمير الآخرين يُعتبر مكوناً أساسياً في نسيجها ومحركاً نشطاً لاعتداءاتها التي لم تتوقف.

يصل البحث إلى نتيجة مفادها أن الغرب كيان يعاني من مرض الصراع مع الآخر، ويحتاج إلى علاج يحمي البشرية من شرور هذا المرض. ولن يُجدي الحوار مع الغرب في ظل اختلال توازن القوة الحالي وانفراده بقيادة العالم والسيطرة على مقدراته.

وعندما نتحدث عن الصراع فإننا نقصد به العدوانية والرغبة في إيذاء الآخرين، والسعي للسيطرة عليهم وإبادتهم؛ إن كان ذلك ممكناً.

ثمة ملاحظة نود الإشارة إليها، ونحن نتناول فكرة الصراع عند الغرب، وهي أننا نرصد الفكر الغربي بشكل عام بِغَضّ النظر عن الأشخاص. فإن ما نركز عليه هو السلوك الجمعي الغربي، وليس الآراء الفردية التي ربما تتأثر بفكرة الصراع بدرجات متفاوتة، وربما تكون إيجابية في بعض القضايا، وتختلف من شخص لآخر، ومن منطقة لأخرى، ومن وقت لآخر.

المنهج الذي نراه في التعامل مع غير المسلمين أنهم ﴿**لَيْسُواْ سَوَاء**﴾[آل عمران: ١١٣] . ليس المقصود هنا مدح طائفة من أهل الكتاب على حساب طائفة أخرى، ولكن العدل في التعامل معهم يقتضي أن نفرق بينهم، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولا نحمل بعضهم خطأ

الكثيريـن منهـم، نعم قد يكون بعض الغربيين لا يكنون لنا العـداء، إلا أن الغالب منهم مُعادٍ للإسلام.

عند دراسـة الغرب نكتشف أن العداء للإسلام هو الأصل عند الغربيين حكاماً ومحكومين، فالأحـداث لا تكشـف عن وجـود تباين واضـح بين الحكومـات المحاربة للإسـلام وبين شـعوبها. فهذه الحكومات التي تغزو بلاد الإسلام، وتحتل أكثر من بلد إسلامي جاءت عبر صناديق الانتخابات وبتأييد شعبي، ولو كان ثمة رفض لسياسة الحكام لكان قد ظهر بسحب الشعوب للثقة من هذه الحكومات.

لم يعد خافياً أن استطلاعات الرأي التي تُجرى بشكل دوري في الدول الرئيسية التي تقود الحروب ضد المسلمين تؤكد موافقة غالبية هذه الشعوب لحكوماتها في سياساتها العدوانية تجاه الإسـلام؛ بل تبدو الشـعوب الغربية أشـد عداوة من حكوماتها في بعض الأحيان، كما تمثل هذا في الدنمارك والدول الاسـكندينافية عقب أزمة الرسـوم المسـيئة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ومع ذلك فإن الغرب بالنسبة لنا «جزء من أمة الدعوة، فقد عُلم من دين الإسلام بالضرورة عموم بعثته صلى الله عليه وسلم، فهو رحمة الله إلى العالمين، ورسوله إلى الناس أجمعين، الغرب والشـرق في ذلك سواء، ولهذا شـاع في المصطلحات الإسلامية تعابير: أمة الدعوة وأمة الإجابة، أمة الدعوة هي العالم بأسره، وأمة الإجابة هم من آمن به صلى الله عليه وسلم، واتبـع النور الذي أُنزل معه، وللغرب في هـذه المنظومة من الخصوصية ما ليس لغيرهم من بقية هذه الأمة، فجذورهم ترجع في الجملة إلى أهل الكتاب، ولأهل الكتاب من الخصوصية ما ليس لغيرهم».(١)

أولاً: الغرب وفكرة الصراع

كان البعد الإنسـاني هـو العامل المشـترك بين كثير مـن الحضـارات، إلا أن الحضارات الأوروبية كانت مختلفة، لها لون خاص بها، تقوم على فكرة الصراع والصدام مع الآخرين، ولا يوجـد فرق كبير بيـن حضارات الغرب القديمـة والحديثة. لقد أثرت هـذه الروح على العقل الأوروبي، وأعطته سـمة تجنح للصدام والميل إلى العدوان في إدارة شـؤونه وتعامله مع الجميع.

إن ما نراه من قسوة وعدوانية في تعامل الغرب مع العالم ليس إلا نتاج حضارات غرست في التربة الأوروبية ثم الأمريكية روحاً محبة للصدام، رفعت من شأن المخالفة والمواجهة على حساب التعايش والتسامح. إذا نظرنا إلى الحضارات الأوروبية، الإغريقية القديمة والحضارة الرومانية ثم الحضارة الغربية الحديثة نكتشف أنها حضارات محاربة في الأساس، جوهرها الصراع ونفي الآخرين.

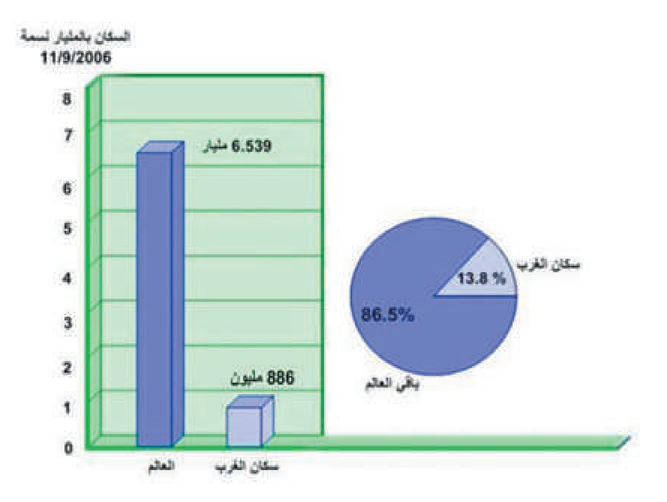
يتبين باستعراض الحضارات الأوروبية أن الصراع مع الآخرين هو الفكرة المحورية والقاسم المشترك بين الماضي والحاضر. فقد أكدت أساطير الإغريق أصحاب أقدم حضارة أوروبية أن الصراع كان هو شغلهم الشاغل، وكأنهم لا يعرفون غير القتال والتعارك، وحتى عندما تحدثوا عن الحب كان عن خطف زوجة أحد الملوك، والذي ترتبت عليه حرب طروادة الشهيرة.

التراث الإغريقي قائم على الخصام والصدام والكراهية. لا يُكِنُّ زفس – رب الأرباب حسب زعمهم– الوفاء والحب لزوجته، والزوجة لا تثق في زوجها، وكلاهما لم يتفقا على أمر، ويخشى كل منهما الآخر، وانقسما في تأييد المتقاتلين، الإغريق والطرواد. وتبدو الآلهة الإغريقية وكأنها في غرف عمليات عسكرية تحرك الجيوش على الأرض كقطع الشطرنج، وتتدخل هذه الآلهة في حالة انتصار جيش على آخر!

مع أفول نجم الإغريق وظهور الرومان تطورت فكرة الصراع إلى الأسوأ؛ إذ قامت الحضارة الرومانية على التوسع والسيطرة على الشعوب الأخرى. كانت الإمبراطورية الرومانية أول من اخترع فكرة الاستعمار. شنوا الحروب وقامت إمبراطوريتهم على استعباد الشعوب الأخرى وحكمها بالقوة والقهر. اشتهر عنهم الظلم والاضطهاد للأمم الأخرى. كانت الإبادة من صنع الرومان أيضاً؛ إذ كانت «المعادلة الرومانية: (أجنبي = بربرياً) تبرر إبادة غيرهم من الشعوب».[٢]

لم تختلف الحضارة الغربية الحديثة عن تلك التي قبلها، بل ازدادت وحشية، وساقها حب الصراع إلى الدخول في أعنف حروب يشهدها تاريخ البشرية. وكان نزول الرجل الأبيض إلى أرض الأمريكتين بداية لأكبر مذبحة ضد الإنسانية حيث أبيدت أمم وشعوب من الهنود الحمر ، ولا يزال العالم يئن من حروب الغرب المتواصلة حتى اليوم.

رسم بياني: سكان الغرب وسكان العالم



المصدر: تم تجميع إحصاءات السكان من http: //www.geohive.com، والغرب هنا يشمل دول أوروبا وأمريكا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا، مع ملاحظة أن الأرقام تشمل كل من يعيشون في الغرب بما فيهم أصحاب الديانات الأخرى غير المسيحية. توضح الإحصائية أن الغرب الذي يهيمن على العالم لا يزيد عن ١٣,٥٪ من سكان الكرة الأرضية.

١ - الإغريق وصراع الأرض والسماء:

نشأت حضارة الإغريق التي تعد أصل الحضارة الأوروبية منذ ما يقرب من ٣٠٠٠ سنة على فكرة الصراع. ومن يقرأ «الإلياذة» و«الأوديسا» يعيش في جو من الأساطير والخرافات القائمة على تصارع الآلهة الأرباب المزعومة وانقسامهم إلى فريقين: جزء منهم مع الإغريق والآخر مع الطرواد. وتتدخل الآلهة دائماً في سير المعارك!

ساهمت الأساطير الإغريقية بشكل كبير في غرس روح الصراع في الثقافة الغربية. تروي هذه الأساطير أن حرب طروادة حول مدينة إليون عام ١٢٠٠ أو ١١٠٠ قبل الميلاد دامت عشر سنين. و«سبب هذه الحرب حسب الأسطورة هو سبي فاريس ابن ملك إليون لهيلانة زوجة ملك

الإخائيين.. وقد حمل فاريس هيلانة إلى إليون ورفض الطرواديون إرجاعها». (٣)

يحكـي التراث الإغريقي أنه ومـع اندلاع هذه الحرب «ثار بين الآلهـة خصام عنيف، فقد انقسـم بعضهم على بعض، وراحوا يتصادمون تصادماً تردد صداه في فسـيح الأرجاء. ورنّ في السماء صوت كنفخ الصور، وسمع هذا زفس وهو جالس في الأولمب فَسُرَّ لرؤية الآلهة يشـتركون في القتال». (٤) ولما كان اليوم التالـي دعا زفس الآلهة إلى مجلس يعقد في أعالي ذرى الأولمب، وخاطبهم قائلاً: «إنني أهيب بكل رب وربة إلى الإصغاء، فلا تذهبن الجرأة بأحدكـم إلى غير ما آمركم به، وكل من يسـعى منكم إلى نصـرة أي الفريقين من الإغريق أو الطرواد، فسـأضربه بصاعقة، أو ألقي به في مهاوي ظلمـات طرطروس، بأبوابها الحديدية، وعتباتها البرونزية، ليعلم أنني الزعيم بين الأرباب». (٥)

لكن زفس يريد أن يكون هو وحده المسئول عن إدارة الحرب وإبعاد الآلهة الآخرين، فهو متعاطـف مع الطـرواد بينما زوجته هيرا تسـاند الإغريق. يقول زفس في حوار ومناقشـة مع زوجته حول الحرب : «حذار أن يولد هذا شـقاقاً بيني وبينك، واذكري قولي: إذا رُمْتُ يوماً أن أهـدم مدينة أحببتها، فليس لك بعـد اليوم أن تعارضي، أو تعيقي سـبيلي ...إنني أحببت طروادة المقدسة من بين ما تحت النجوم من مدن العالـم... فهي لـم تتوان عن تقديم الضحايا لمذبحـي». (٦) وكان رد هيـرا : «إن لي من المـدن ثلاثاً قد خصصتها بحبـي، وهي أرغوس وإسبارطة وميكينا فخربها جميعاً إذا ما أزعجك أمرها». (٧)

تروي الأسـاطير الإغريقيـة كذلك قصصاً عجيبة عن تصارع الآلهـة واعتداء بعضهم على بعض وسـب بعضهـم لبعض. وتوضح هذه القصص أن الكراهيـة هي الأصل، وأن الصراع هو أسـلوب التعامل، وتختفي في هذه الأسـاطير قيم المحبة والمودة. فقد «بدأ آرس خارق التـروس، فهجم علـى أثينا، يحمل رمحـه بيده صائحاً: لـم تجعلين الآلهـة يختصمون في القتـال؟ أنت يا من لك وقاحة الذبـاب وصفاقة الكلاب؟ ألا تذكريـن يوم حرضت ذيوميذ بـن ثيذيوس عليَّ ليجرحني؟ وكيف أخذت برمحه فـي يدك لكي يراه الجميع، وصوبته إلى فخذي؟». (٨)

وفي موضع آخر «وضعت هيرا يدها اليسـرى على أرطميس وأخذت بمعصمها وسـلبت منها قوسـها وسـلاحها، وضربتها فيما حول أذنها، وقد بسمت قليلاً، وهي ذاهبة، وسقطت السـهام من الجعبة، وهربـت الإلهة تاركة قوسـها، كما تهرب ورقاء أمـام صقر، لاجئة إلى

وكرهـا بين الصخور».(٩) وفي موضع ثالث خاطب الإله هرمس لاطونة قائلاً: «لن أقاتلك يـا لاطونة، فإنه لمن أشـق الأمور خصام من يختصهم زفس بحبه. فتبججي ما تشـائين أمام الآلهة الخالدين بأنك قد نلت عليَّ في القتال ظفراً».(١٠)

أثرت هذه الأسـاطير في الفنون الغربية على مر التاريـخ، وكانت تلك الفنون مصدر إلهام للأدباء والشـعراء والمفكرين الذين قاموا بدورهم بإضفاء هالة من القداسـة عليها، وأصبح هذا التراث القديم المعين هو الذي يسـتلهم منه الأوروبيون الكثير من الأفكار والسلوكيات في مجالات شتى.

هذه الأسـاطير في الحضـارة القديمة توضح أن فكرة الصراع لها جذورها المغروسـة في التربة الغربية، وأنها غالبة على ما عداها من قيم.

٢- الرومان وعقيدة الصراع:

بعـد انحسـار التأثير الحضاري للإغريـق، ظهر الرومـان. وتعتبر الإمبراطوريـة الرومانية مـن أكثر الإمبراطوريات التي لعبت دوراً هاماً في التاريـخ الأوروبي، وكان لها تأثيرها على العالـم. كانت هـذه الإمبراطورية أول من بدأ الحروب الاسـتباقية والتوسع على حسـاب باقي الشـعوب. كانت القوة العسـكرية وراء الاندفاع والسيطرة على مساحات شاسعة حول البحر المتوسـط شمالاً وجنوباً وشـرقاً. و« تُعدّ الإمبراطورية الرومانية أكبر دولة استعمارية في التاريخ القديم، فقد بدأت روما توسُّـعَهَا فيمـا وراء البحار نحو عام ٢٦٤ق.م. وفي أوج مجدها، كانت الإمبراطورية الرومانية تمتد من شـمالي بريطانيا إلى البحر الأحمر والخليج العربيّ».(١١)

و«تزايـد احتـكاك الرومان بالأفـكار الإغريقية خلال القـرن الرابع قبل الميـلاد. ومن ثم أخذوا يعبدون الآلهة الإغريقية، وأعطوها أسـماء رومانية وبنـوا معابد ومزارات لتكريمها. وقد سـيطرت الحكومـة على الديـن، وكان الكهنة موظفيـن حكوميين، إمـا بالانتخاب أو بالتعييـن، يقومـون بالطقـوس العامة التي كانوا يرون أنهم يكسـبون بها عطـف آلهتهم على الدولـة. عانى النصارى اضطهاداً كبيراً في بداية القرن الثالث الميلادي؛ لاتهام الرومان لهم بأنهم أسـاس كل المصائـب الواقعة بهم آنـذاك؛ لكفرهم بآلهة الرومـان. وفي ٣٠٣م حظر ديوكليشـيان النصرانية. وفي ٣٦١م حاول الإمبراطور جوليان كبح انتشـار النصرانية وإعادة

الديانة الرومانية التقليدية». (١٢)

اضطهد الرومان المسيحيين فترات طويلة، وعندما اعتنق الرومان النصرانية حدث تحول في المسيحية الغربية. إذ تغيرت الديانة التي كانت في أصلها داعية للسلام إلى ديانة تبرر العدوان وتمنح المبرر الأخلاقي للحرب الاستباقية. فقد استطاع القديس أوغسطين أن يدمج بين السلطة المهيمنة والدين في القرن الخامس الميلادي ، وأعطى الحق للإمبراطور في شن الحرب بدعوى تحقيق السلام وأطلق مصطلح «الحرب العادلة» الذي أصبح فيما بعد الدافع وراء حروب الغرب تجاه العالم، من يومها وحتى الآن .

> غَيَّرَ الرومان المسيحية التي كانت في أصلها داعية للسلام إلى ديانة تبرر العدوان وتمنح المبرر الأخلاقي لشن الحروب

وباسم هذه العدالة «المقاتلة» تعرضت أمم وشعوب عديدة للقتل والإبادة.

و«مع ذلك أخذت الإمبراطورية الرومانية الغربية تضعف بشكل مطرد، فقد هاجم الواندال، والقوط الغربيون، وشعوب جرمانية أخرى، كلاً من أسبانيا والغال وشمالي إفريقيا. ويُؤرخ سقوط الإمبراطورية الرومانية غالباً بسنة ٤٧٦م. حيث عَزَل، في تلك السنة الزعيم الجرماني أدواسر آخر حاكم للإمبراطورية الرومانية الغربية، وهو رومولوس أوغستولوس، عن العرش. وكان الزعماء الجرمان قد بدءوا قبل ذلك بتقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى ممالك عديدة. وظلت الإمبراطورية الرومانية الشرقية باقية وممثلة للإمبراطورية البيزنطية، حتى استولى الأتراك العثمانيون على القسطنطينية في سنة ١٤٥٣م». (١٣)

٣ - الصراع والمسيحية المحرفة:

كان لاعتناق الرومان النصرانية تأثيره في عسكرة المسيحية الغربية، وإحداث تحول كبير في الديانة من المسالمة إلى تسويغ شن الحرب. واجهت الرومان في البداية مشكلة التزام الشعوب المتنصرة حرفياً بتعاليم النصرانية الداعية للسلام والكارهة للحرب، وعدم تقبل المسيحيين لفكرة القتال. « لذلك كان طبيعياً أن يرفض الرومانيون الذين دخلوا في المسيحية في المراحل الأولى أن يقوموا بأداء الخدمة العسكرية في روما، أو أن ينخرطوا

في الجيش الروماني، أو أن يشتركوا في الحروب التي كانت تشنها الإمبراطورية الرومانية. وعلى إثر ذلك قام صراع عنيف بين دعاة المسيحية المسالمة ورجال الحكم في روما. وكان هذا الصراع في الحق صراعاً بين الروحية والمادية» . (١٤)

لم يكن سهلاً أن يتراجع رجال الدين عن معتقداتهم أمام ضغوط الأباطرة الرومان، خاصة مع الفصل الذي كان موجوداً بين السلطة والكنيسة، ومع شيوع قيم الزهد والروحانية. لكن مع الوقت بدأ رجال الدين المسيحي يتقهقرون، وأخرج القديس ايزيدور والقديس امبروار بعض النظريات في هذا الشأن، على أن الداعية الذي كان له الأثر الحاسم في إيجاد هذا التوفيق هو القديس أوغسطين الذي أخرج في هذا الشأن مؤلفَيْن أولهما هو «العقيدة المخالفة»، والثاني هو «مدينة الرب».

جاء هذا الانقلاب من ديانة متسامحة إلى ديانة محاربة نتيجة رغبة من السلطة السياسية للإمبراطورية، واجتهادٍ من الكنيسة التي رأت في الحرب وسيلة لإقامة مملكة الرب في الأرض. كان تطابق تأييد الكنيسة للحرب ورغبة رجال الحكم له أثره في ترسيخ استخدام القوة العسكرية لفرض الهيمنة، وربط هذا التوجه بالعقيدة الدينية.

ويبدو واضحاً لمن يتفحص مؤلفي القديس أوغسطين أنه دعا المسيحيين إلى التخلي نهائياً عن فكرة المسالمة التي قام على دعامتها الدين المسيحي. قام هذا القديس في مؤلفه الأول « بتسويغ فكرة الحرب وفق الحجج التالية: أن الحرب هي عمل من أعمال القضاء العادل المنتقم. فهي تقوم لإنزال العقاب بالعدل، ومن ثم فليس هناك ظلم يقع من جانب من يقوم بالحرب العادلة. أن الحرب هي لصالح المنهزمين؛ لأنها ترجع بهم إلى حال السعادة في السلام. أن الحروب تقوم من أجل ضمان السلام».(١٥)

وقد أثبتت وقائع التاريخ أن العدالة لم تتحقق قط في أي حرب شنَّها الغرب، وكان الظلم هو الأصل. وكانت حروبهم ضد غيرهم أو ضد بعضهم البعض أمثلة واضحة على حب العدوان والكراهية ومعاداة الإنسانية.

كان للقديس أوغسطين القدرة على التجرؤ وكسر التعاليم وتقديم وصفة جديدة دمجت بين النقيضين: السلطة والكنيسة. كانت شخصيته القوية ومكانته الدينية دافعاً لتقديم مفهوم جديد للمسيحية يخالف ما توارثه النصارى عبر قرون.

اللافت للنظر أن ما طرحه أوغسطين -خضوعاً لرغبة الحكام الرومان- لم يلق معارضة

كبيرة من رجال الدين. ويبدو أن هذه النقلة الجوهرية قد لاقت القبول تحت ضغط الهجمات التي تعرضت لهـا الإمبراطورية «فقد هاجم الواندال، والقوط الغربيون، وشـعوب جرمانية أخـرى، كلاً من أسـبانيا والغال وشـمالي إفريقيا. ونهب القـوط الغربيون مدينة روما سـنة ٤١٠م».(١٦)

ومنذ صك مصطلح «الحرب العادلة» بات الغرب يجد المشروعية الزائفة في شن الحرب وتبريـر العدوان، لهـذا اجتهد قادة ومنظرو الغـرب عبر العصور لتقديـم تصورات للحرب العادلـة ووضع شـروط لها؛ لإعطاء أبعاد إنسـانية ومشـروعية تبرر الانخـراط فيها. «يذكر جون فيرجسـون في تلخيصه لعناصر نظرية الحرب العادلة كما ظهرت في المسـيحية ثمانية عناصر هي: الحرب العادلة هي الحرب المعلنة من قبل السـلطة الصحيحة. يجب أن تكون القضيـة عادلـة. يجب أن يكـون الهدف زيادة الخير وتقليص الشـر. يجـب خوض الحرب بالوسائل المناسبة. يجب أن تكون ضد المذنبين وليس الأبرياء. يجب ألا يعاني الأبرياء من ويلات الحرب أكثر من اللازم. يجب أن تكون الحرب هي الملجأ الأخير بعد فشـل جميع الإجراءات الأخرى. يجب أن تكون هناك فرصة معقولة لتحقيق النجاح. ويوضح فيرجسون أن تأييد المسـيحية لرؤية الحرب العادلة، تحل محل الرؤية المستمدة من الفلسفة الإغريقية والقانون الروماني».(١٧)

لكن الحكومات الأوروبية لم تنظر إلى هذه الشـروط قبل شـن الحروب. كما أن الشروط لم تتحقق في حروب الغرب، فكل الحروب التي أشـعلها الغربيون اعتبرت عادلة! وباسـم العدالة تقاتل الغربيون أنفسهم وأراقوا دماء بعضهم البعض. وكل من بدأ الحرب سوَّغ لنفسه وصوَّر لشعبه أن حربه عادلة. و«من الحروب المقدسة إلى الحروب العادلة، يبين التاريخ أن المحاربين الأكثر استعداداً لادعاء الانتساب إلى قضية سامية هم غالباً المسئولون عن اقتراف أسـوأ التجاوزات، هكذا روى مدونو الوقائع -مـن دون أن يرمش لهم جفن- المذابح التي دنَّس بها الصليبيون نصرهم عند الاسـتيلاء على القدس. وعبر أوروبا كلها خلَّفت الحروب الدينيـة ثم حـرب الثلاثين عاماً جرائم مهولة، تركت لنا منحوتـات جاك جالو Jaqu Gallot صـورة مروعة عنهـا، بينما عكف عدد لا يُحصى من رجال اللاهوت على كلا الجانبين على تبريرها باسـم الإنجيل . بيـد أن أهوال القرون الماضية تبهت بالمقارنـة بالمذابح والجرائم التي قادت إليها الحروب الصليبية الأيديولوجية للقرن العشـرين: الحرب الأهلية الروسـية

وحرب أسبانيا والحرب العالمية الثانية». (١٨)

ثمة حقيقة جديرة بالتذكير متعلقة بموقف الرومان من الآخرين، فهم أول من سن نهج إقصاء الآخرين والقضاء عليهم؛ إذ كانوا لا يعترفون بحق الآخرين في الاختلاف معهم ولم يعرفوا قيم التعايش مع مخالفيهم. و«حين كانت الإمبراطورية الرومانية في حالة صعود، جاء المسيح عيسى عليه السلام، وبمجرد ظهور المسيح تمت معاملته كآخر.. فقد قام الرومان باتباع سياسة التمييز العنصري ضد أتباع المسيح وعذَّبوهم؛ لكونهم الآخر.. وفي القرن الرابع، اعتنق الإمبراطور قسطنطين، ومن تبعه من الأباطرة الرومان المسيحية وجعلوا منها ديانة الدولة. وبعد أن أصبح للمسيحية نفوذ، أصبح كل من اليهود والمؤمنين بالديانة العامة الرومانية القديمة يمثل الآخر. لقد عوقبوا وعذبوا واضطهدوا بسبب ديانتهم.. قاموا بإرهاب المواطنين الرومان الذين مارسوا ديانتهم العامة.. كان يتم التمييز ضد غير المسيحيين بشكل صريح وعلني. لقد فرضت عليهم الغرامات طبقاً لقوانين غير عادلة، وتعرضوا للسجن وللتعذيب والإعدام أيضاً».(١٩)

وهذه الروح العدائية عند الرومان تجاه الآخرين تواصلت مع الأجيال، وباتت صفة أصيلة في السلوك الغربي تجاه غيرهم، وتحولت مع الممارسة إلى سلوك عام، يهدف إلى الهيمنة على الأمم المغايرة ورفض محاولات الشعوب الأخرى للاستقلال، حتى لو أدى الأمر إلى إزهاق الأرواح.

ثانياً: التعارك مع الأشقاء واستنزاف الذات

ذاق الأوروبيون بسبب عقلية الصراع الويلات. فقد قتل بعضهم بعضاً وسفكوا دماءهم بأيديهم. وشرد بعضهم بعضاً. وتغيرت الحدود السياسية داخل هذه القطعة الجغرافية مراراً بفعل الحروب، وتمزقت أعراق. لم تشهد منطقة حروباً استمرت عقوداً من الزمن، ومات فيها ملايين البشر غير أوروبا.

إن الحروب بين الأمم الأوروبية تفوق الوصف في بشاعتها «فقد شهد التاريخ الأوروبي حروباً استمرت عشرات السنين. الأمثلة كثيرة أبرزها ما حدث عقب مولد حركات الإصلاح الديني التي أسسها مارتن لوثر فقد «أدى مولد البروتستانتية في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، إلى الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت، التي استمرت لأكثر

خريطة (١): الحروب وتأثيرها على تغيير الحدود السياسية للدول الأوروبية

أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى | بعد الحرب العالمية الأولى | أوروبا اليوم

المصدر: الموسوعة العربية العالمية. توضح الخرائط الثلاث تغير الحدود السياسية للقارة الأوروبية بسبب حربي القرن العشرين، الأولى والثانية، اللتين وصفتا بالعالميتين بينما هما في الحقيقة حربان بين الأوروبيين بعضهم البعض.

من مائة عام. ولا يزال شعور الكراهية يسود بين الكاثوليك والبروتستانت في أجزاء قليلة من أوروبا. فعلى سبيل المثال، أدى الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت في أيرلندا الشمالية إلى كثير من أعمال العنف في المنطقة منذ الستينيات من القرن العشرين». [٢٠]

استمرت حرب المائة عام (١٣٣٧ - ١٤٥٣م) بين إنجلترا وفرنسا على مدى عهود حكم خمسة ملوك إنجليز وخمسة ملوك فرنسيين. وكان القرن العشرين أكثر القرون دموية؛ إذ قتل الملايين من الأوروبيين في حربين عالميتين بسبب نمو النزعات القومية، والدينية. فقد أسفرت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م) عن «قتل ١٠ ملايين جندي من الدول التي خاضت الحرب، وأصيب ٢٠ مليون آخرين». [٢١]

وفي الحرب العالمية الثانية سقط أكبر عدد من القتلى يعرفه تاريخ الحروب، فقد أزهقت الحرب من الأرواح، وسببت من الخسائر أكثر مما سببته أي حرب أخرى. نتج عن القتال بين الأوروبيين موت ملايين من البشر. تشير معظم التقديرات إلى «مقتل ٥٥ مليون شخص»[٢٢]، بينما في تقديرات أخرى يصل عدد الضحايا إلى « ٦٢ مليون إنسان تقريباً»[٢٣].

وقد استخدمت كل أنواع الأسلحة في هذه الحرب، وكان إحداث أكبر قدر من التدمير هدف الفريقين المتقاتلين، وكان الموت والخراب سمة مميزة لهذا الصدام. ولقد جر القصف الجوي «الخراب على أهداف مدنية وعسكرية على السواء، وترك كثيراً من المدن في دمار خاصة في ألمانيا واليابان. فقد خربت القنابل المنازلَ والمصانع ومعدات النقل ووسائل المواصلات، ونشرت المعارك البرية الخراب فوق مناطق شاسعة. وبعد الحرب تشرد ملايين من الجياع والذين لا مأوى لهم في المناطق الخربة». (٢٤)

عندما بدأ الرجل الأبيض يخرج من القارة الأوروبية، بصراعاتها وتاريخها الصدامي لم يترك حب الصراع خلف ظهره، ولم يتخلص من الروح العدوانية، إنما حمل معه ذات الروح إلى العالم الجديد، وبدلاً من ولادة إنسان آخر متحرر من أَسْر الماضي بدا أكثر شراسة وأشد عدوانية، وظهرت سمات سادية جديدة.

ثالثاً: انتقال عقلية الصراع إلى العالم الجديد

كان الأوروبيون الذي هاجروا إلى أمريكا أكثر شراسة من أسلافهم. وبدلاً من التحضر وإقامة المدينة الفاضلة التي كانوا يحلمون بها ويدعون لها ضربوا أسوأ مثال في العداوة وإراقة الدماء واستئصال الآخرين. فقد «هاجر المتطهرون من الإنجليز الأوائل إلى الولايات المتحدة، حاملين معهم العقيدة الأكثر دموية في تاريخ البشرية، ومسلحين بفكرة: الشعب المختار، مقننين فكرة الإبادة، وكأنها حسب روايتهم إلهية». (٢٥)

يكشف تعامل المهاجرين الأوروبيين مع الهنود الحمر عندما نزلوا أمريكا عن تمكن عقيدة الصراع العدوانية التي ظهرت تجاه سكان البلاد الأصليين. فقد تم إبادة الملايين من الهنود الحمر، وتم إفناؤهم بالجملة في أكبر مذبحة لشعب عرفها التاريخ القديم والحديث. وكانت نشأة أمريكا – في ذاتها – مثالاً معبراً عن الروح الاستئصالية التي تلبست المهاجرين الغربيين الأوائل الذين تركوا أوروبا إلى الوطن الجديد، وأقاموا دولتهم على أساس إفناء الآخر وإنهاء وجوده.

١ – تطور فكر الإبادة:

ما تعرض له الهنود الحمر من مذابح على يد الرجل الأبيض، يوضح جانباً مظلماً في

الشخصية الغربية، فالأمة الهندية تعرضت لحروب الإبادة الجماعية التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً. شارك الأوروبيون من معظم القوميات والجنسيات في هذه المذابح التي لونت الأرض الأمريكية بلون الدم. فهذه القارة تعرضت لاجتياحات أفنت معظم شعوبها، ودمرت حضاراتها. والدول التي نراها اليوم بنيت فوق مقابر جماعية، تخفي معها جرائم تقشعر لها الأبدان.

من الوثائق التي كشفت عن الفظائع التي ارتكبها الأوروبيون عندما اجتاحوا الأمريكتين ما كتبه المطران برتولومي دي لاس كازاس في مذكراته عن الفترة ١٥١٨ إلى ١٥٤٢ التي صاحب فيها طلائع الأسبان إلى العالم الجديد. ولا يخلو كتاب يتناول تاريخ الاكتشافات وإبادة الهنود من إشارة لهذه الشهادة التاريخية.

> ما تعرض له الهنود الحمر من مذابح على يد الرجل الأبيض، يوضح جانبًا مظلمًا في الشخصية الغربية

يقول لاس كازاس: «كان الهنود في البداية يظنون أن المسيحيين قد نزلوا عليهم من السماء. كان ذلك إلى أن عذبهم المسيحيون ونهبوهم وفظَّعوا بهم ونكبوهم مراراً وتكراراً.. إن الذين ذهبوا إلى هناك من أدعياء المسيحية أبادوا الشعوب الهندية الوادعة، ومحوا ذكرها من وجه الأرض، إما بالاجتياحات الدموية المتوحشة، وإما باستعباد من تبقى استعباداً فظاً غليظاً شنيعاً لم يشهد مثله البشر ولم تعرفه الدواب. أما من كان يحلم بالحرية أو يفكر فيها أو يحاول الخلاص من عذاباته كما يفعل ذلك كل إنسان فمصيره القتل».(٢٦)

وحين «رأى الهنود كل هذا العنف والتفظيع بدءوا يعرفون أن هؤلاء الرجال لم ينزلوا من السماء، وصار بعضهم يخبئ طعامه أو يهرب من هؤلاء البشر القساة ويختفي في الغابات. كان المسيحيون يطاردونهم ويختطفون أسياد القرى. وقد بلغ بهم الطيش والتراذل أن اغتصب قبطان مسيحي امرأة حاكم الجزيرة وامرأة أشهر نبلائها. آنذاك راح الهنود الحمر يبحثون عن وسائل لطرد المسيحيين، وحملوا السلاح. ولكنه كان سلاحاً غير هجومي، بل كان أعجز عن المقاومة والدفاع؛ لذلك كانت حروبهم أشبه بألعاب الصبيان».(٢٧)

«كانوا يدخلون على القرى فلا يتركون طفلاً أو حاملاً أو امرأة تلد إلا ويبقرون بطونهم ويقطعون أوصالهم كما يقطعون الخراف في الحظيرة. وكانوا يراهنون على من يشق رجلاً

بطعنة سكين، أو يقطع رأسه أو يدلق أحشاءه بضربة سيف. كانوا ينتزعون الرضع من أمهاتهم ويمسكونهم من أقدامهم ويرطمون رؤوسهم بالصخور، أو يلقون بهم في الأنهار ضاحكين ساخرين. وحين يسقط في الماء يقولون: عجباً إنه يختلج. كانوا يسفدون الطفل وأمه بالسيف كما تسفد قطع اللحم بالسفود، وينصبون مشانق طويلة، ينظمونها مجموعة مجموعة، كل مجموعة ثلاثة عشر مشنوقاً، ثم يشعلون النار ويحرقونهم أحياء. وهناك من كان يربط الأجساد بالقش اليابس ويشعل فيها النار.

كانت فنون التعذيب لديهم أنواعاً منوعة. بعضهم كان يلتقط الأحياء فيقطع أيديهم قطعاً ناقصاً؛ لتبدو كأنها معلقة بأجسادهم، ثم يقول لهم: هيا احملوا الرسائل أي هيا أذيعوا الخبر بين أولئك الذين هربوا إلى الغابات. أما أسياد الهنود ونبلاؤهم فكانوا يقتلون بأن تصنع لهم مشواة من القضبان يضعون فوقها المذراة، ثم يربط هؤلاء المساكين بها، وتوقد تحتهم نار هادئة من أجل أن يحتضروا ببطء وسط العذاب والألم والأنين». (٢٨)

«وحين كان الأسبان يريدون أن ينهبوا قرية أو يسرقوا ذهبها وخيراتها يصلون إليها بعد منتصف الليل. وساعتها يقرءون على الهنود المساكين الغارقين في النوم فرمان فتحهم بالأسبانية التي لا يفهمها كل السكان، ويقولون فيه: يا زعماء قبائل الهنود، ويا سكان القرية. إنا نعلمكم بوجود إله واحد، وبابا، وملك قشتالة سيد هذه الأراضي كلها، فاخرجوا وأعلنوا الطاعة له؛ وإلا فإننا سنعلن الحرب عليكم ونقتلكم. ومع طلوع الفجر كان الأسبان يدخلون على هؤلاء المساكين الأبرياء النيام فيحرقون منازلهم القشية ويحرقون الأطفال والنساء وهم أحياء. كان الأسبان طوال هذه السنين يكتبون ويزعمون أن الله أرسلهم لفتح هذه البلاد التي كانت آمنة مطمئنة، وأن الله هو الذي نصرهم على هذه الأمم. وكانوا يحمدون الله في صلواتهم ويشكرونه؛ لأنه أعطاهم كل هذه الخيرات؛ ولأنهم قاموا بكل هذا الطغيان». (٢٩)

وفي شهادة أخرى يرويها «دييجوا دي لاندا أسقف يوكاتان، وهو لا يحب الهنود بوجه خاص، يقول: إنه رأى شجرة بالقرب من هذه المحلة، شنق قائد على فروعها عدداً كبيراً من الهنديات كما شنق على أقدامهن الأطفال الصغار. (.....) لقد اقترف الأسبان أهوالاً لم يسبق لها مثيل؛ إذ كانوا يقطعون الأيدي والأذرع والأرجل، ويقطعون أثداء النساء، وكانوا يلقون بها في البحيرات العميقة ويطعنون الأطفال؛ لأنهم لم يكونوا يمشون بالسرعة التي تمشي بها أمهاتهم. وإذا ما سقط أولئك -الذين كانوا يقتادونهم مسلسلين من الأعناق-

مرضى أو لم يسيروا بالسرعة التي يسير بها رفاقهم، فقد كانوا يقطعون رؤوسهم حتى لا يضطرون إلى التوقف وفك أغلالهم». (٣٠)

وقد أخرج حب الصراع مكنون الشر في نفوس المستعمرين الجدد، وولَّد نزعات عدائية غير مسبوقة؛ إذ توارت الروح الإنسانية خلف رغبة الإبادة والتشفي والتفنن في القتل والتمثيل بالضحايا. من هذه الظواهر المروعة سلخ رؤوس الضحايا، للإرهاب والتخويف، وأيضاً كوسيلة لإحصاء عدد القتلى، بدلاً من معاناة حمل رؤوسهم !

في دراسته عن جرائم الإبادة التي تعرض لها الهنود يؤكد منير العكش(٣١) أن «الرجل الأبيض هو الذي خلق عادة السلخ في العالم الجديد، وأن أكثر جرائمها من صنع يديه.. وكانت عادة سلخ فروة الرأس متبعة أيام الحروب الإنكليزية الأيرلندية، ففي أواخر القرن السادس عشر لجأ القائد الإنجليزي همفري جلبرت إلى قطع الرؤوس وسلخ فروتها لإثارة الذعر في نفوس الأيرلنديين وقمع انتفاضتهم (١٥٦٧-١٥٧٠) في فظاعات أقلها زرع جانبي الطريق إلى مقر زعيم الانتفاضة بالرؤوس المقطوعة. وقبل أن يتوجه إلى العالم الجديد، خلع عليه البلاط لقب « فارس»؛ اعترافاً ببلائه في نشر الحضارة.

فقد أعاد الجنرال الفرد سولي هذا المشهد بكل تفاصيله بعد حوالي ثلاثة قرون عندما أمر بنصب الرؤوس المقطوعة لهنود اللاكوتا على عصي، كل رأس على عصا، وزرعها على جانبي الطريق المؤدية إلى مقره العام. ولقطف الرؤوس وظائف أخرى غير الزينة أو فرض الهيبة كما كان الحال في أيرلندا والمستعمرات الأمريكية الأولى. لقد استخدمت في البداية - بدلاً عن آلات الحساب الخرزية - للتأكد من عدد القتلى، ثم سرعان ما اكتشفت أخلاق السوق فيها وسيلة للرزق فاعتمدتها وطورتها وجعلت منها صناعة مستقلة.

رصدت السلطات الاستعمارية مكافأة لمن يقتل هندياً، ويأتي برأسه، ثم اكتفت بسلخ فروة الرأس إلا في بعض المناسبات التي تريد فيها التأكد من هوية الضحية. ولعل أقدم مكافأة إنكليزية على فروة الرأس بدلاً من كامل الجمجمة تعود إلى عام ١٦٩٤. في ١٢ سبتمبر من ذلك العام رصدت المحكمة العامة في مستعمرة ماساشوستس مكافآت مختلفة لكل من يأتي بفروة رأس هندي مهما كان عمره أو جنسه. وتختلف هذه المكافآت بحسب مقام الصياد: خمسون جنيهاً للمستوطن العادي، وعشرون جنيهاً لرجل الميليشيا، وعشرة جنيهات للجندي. ولم تمض عشرون سنة حتى رصدت كل المستعمرات الإنكليزية جوائز مماثلة.

في فالموث، أو ما يعرف ببورتلاند أسس توماس سميث إحدى هذه الشركات التي تستأجر فرقة من المغامرين لقتل الهنود والعودة برؤوسهم أو فرواتها. كان سميث يزود الفرقة بالمعدات والذخائر ويتقاضى ثلث المكافأة. وتقول صفحة يومياته: إن حصته من مكافآت ذلك اليوم الكاسد (١٨ يونيو ١٧٥٧) بلغت ١٦٥ جنيهاً. كان الصيادون يتعهدون قرًى معينة، يمشطونها قرية قرية ولا يبقون فيها فروة واحدة.

ولأن فروة رأس الهندي الحليف لا تختلف عن فروة الهندي العدو؛ ولأن صيدها أسهل؛ ولأن أخلاق السوق لا تعنيها هذه التفاصيل التافهة فقد ركزت هذه التجارة جهودها على صيد رؤوس الحلفاء، ولاسيما أولئك الذين تنصروا واستعاروا لأنفسهم أسماء القديسين. زعمت فرقة من أربعة رجال من مستوطني نيوجرسي أنهم يصطادون هنود فيلادلفيا، لكن تبين أن كل ضحاياهم كانوا من هنود المنطقة الذين أنقذ المستعمرون أرواحهم واستخدموهم في أعمال السخرة.

يروي المغامر لويس وتزل Lewis Wetzel أن غنيمته من فروات رؤوس الهنود كانت لا تقل عن أربعين فروة في الطلعة الواحدة، ويعتبر وتزل وهو ابن مستوطنين مغامرين، من أبطال التاريخ الأمريكي وما يعرف بعمالقة الثغور. جُرح صغيراً عندما كان أبواه يحاولان الاستيلاء على أراض هندية بالقوة. في الرابعة عشرة دشن أول ضحاياه ونذر نفسه لقتل الهنود. لهذا لم يتزوج ولم يُضع لحظة من حياته في عمل آخر. من جرائمه قتل زعيمين هنديين فيما كانا يجريان مفاوضات السلام مع المستعمرين، الأول زعيم الدولاوير عام ١٨٧١، والثاني زعيم السينكا عام ١٨٧٩. وبدءاً من «وتزل» صار قطع رأس الهندي وسلخ فروة رأسه من الرياضات الإنجليزية المحببة، بل الكثير منهم يتباهى بأن ملابس صيده وأحذيته مصنوعة من جلود الهنود. ثم تغير الحال بعد عقد من الزمان عندما بدأ الإنكليز الملكيون والإنكليز الثوار يسلخون رؤوس بعضهم فيما يدعي كل منهم وصلاً بالعناية الإلهية، وينسب إليها جرائمه وفظائعه. وبالطبع فقد تنازع الطرفان على صفة الاختيار والتفضيل، وتمثيل (شعب الله)، لكنهم جميعاً ظلوا مخلصين لتقليد السلخ والتمثيل بالجثث طوال فترة ما يسمى بحرب الاستقلال».(٣٢)

وقد تعددت الأرقام حول الضحايا الهنود الذين أُبيدوا على يد الرجل الأبيض إلا أن أحد التقديرات يشير إلى أن «عدد سكان الأرض في عام ١٥٠٠ يبلغ نحو ٤٠٠ مليون نسمة،

يسكن ٨٠ مليون منهم القارتين الأمريكتين. وبحلول أواسط القرن السادس عشر يتبقى من هذه الملايين الثمانين عشرة ملايين. أما إذا قصرنا حديثنا على المكسيك، فإن عدد سكانها، عشية الفتح، يبلغ نحو ٢٥ مليون نسمة، بينما يبلغ في عام ١٦٠٠ مليون نسمة. وإذا كانت كلمة إبادة قد استخدمت استخداماً دقيقاً في الحديث عن حالة ما، فهذه الحالة هي تلك التي نتحدث عنها. فهذا رقم قياسي، ليس فقط من الناحية النسبية (تدمير بنسبة ٩٠ ٪ وأكثر) وإنما من الناحية المطلقة أيضاً ؛ لأننا نتحدث عن انخفاض لعدد السكان يقدر بـ٧٠ مليون إنسان».[٣٣]

لم يكن الهنود الحمر هم وحدهم ضحايا العالم الجديد. فالسود الذين تم جلبهم من إفريقيا كعبيد كان لهم قصة مأساوية لازالت آثارها باقية حتى اليوم. فقد نشأت أمريكا على أكتاف وجماجم ملايين الأفارقة الذين كان يقوم الغربيون باصطيادهم من إفريقيا ويتم شحنهم في السفن لخدمة الرجل الأبيض. وروى السودُ الأرضَ الأمريكية بدمائهم كي تنمو المحاصيل وتدور المصانع وينتعش الاقتصاد. ولا يمكن تجاهل أن الكثير من السود الذين اختُطفوا من القارة الإفريقية كانوا من المسلمين.

٢ - الحرب الأهلية الأمريكية:

اكتوى المستعمرون الجدد بنار الصراع، مع تزايد النزعة العدائية للرجل الأبيض في الوطن الجديد فيما عرف بالحروب الأهلية. كان منطق القوة هو السائد في كل شيء. القوي هو الذي يحكم وهو الذي يفرض كلمته، واللجوء إلى العنف لحسم أي نزاع هو الخيار الوحيد. فقد تقاتل الأمريكيون وقتل بعضهم بعضاً. وكانت خسائر الحروب بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية فادحة.

كلفت الحرب البلاد أعداداً هائلة من الأرواح «فقد بلغ عدد القتلى من الطرفين ٦٢٠ ألفاً، من بينهم ٣٦٠ ألفاً من الشمال و٢٦٠ ألفاً من الجنوب. وقد مات أكثر من نصف هؤلاء نتيجة الإصابة بالأمراض. وكلفت الحرب الأمريكيين عامة ثمناً باهظاً في الممتلكات والمزارع والصناعة والتجارة، وهلك الكثيرون من المدنيين من رجال ونساء وأطفال» .[٣٤]

ما حدث في المعارك لا يعطي انطباعاً بأن القتال يدور بين أشقاء من دم واحد. فكلا الطرفين كان حريصاً على إفناء الآخر. هذا الكم من القتل الذي شهدته أمريكا ربما لا

نجده بهذا الشكل في أي بقعة أخرى. فالسلاح يستخدم منذ اليوم الأول لنزول المهاجرين. واستخدام السلاح كوسيلة وحيدة لحسم أي خلاف ظاهرة مرتبطة بالمواطن الأمريكي .

وقد توارثت الأجيال حمل السلاح ليصبح حقاً أصيلاً لكل مواطن، لا تستطيع أي حكومة أمريكيـة تقييده كما هو في باقي العالم. وترتب على شـيوع هذه الظاهرة أن أصبحت المدن الأمريكية أقل أمناً. فحوادث القتل والعنف اليومية بها لا تُقارن، والمدن الأمريكية تشهد أعلى نسبة من الجرائم الجنائية على المستوى الدولي.

إبادة المخالفين والقضاء عليهم بدلاً من التعايش معهم يعني أننا أمام طفرة في النزوع العدائي

«إن العقلية الأمريكية تعاني تاريخياً من مشكلة الولع باسـتخدام البندقية والسـلاح. لقد كان رب الأسـرة الأمريكي يُعرف في الماضي بأنه كان يحمل سلاحه داخل بيتـه معظم الوقت، وإذا ضايقه شـيء ما؛ كان يقف ويطلق الرصاص فـي الهواء لينفِّس عن ضيقه، ولم يُعرف شـعب آخر في العالم إطلاقاً بذلك ، ولا حتى في باقي الشـعوب الغربية. كان إطلاق الرصاص في المجتمـع الأمريكي أمراً معتاداً منـذ بدء الدولة وحتى الآن، ولذلك ليس عجيباً أن تتعامل أمريكا مع العالم بالمنطق الوحيد الذي تعشقه وتهواه، وتظن أنها تجيده وهو منطق القوة والسلاح».[٣٥]

وخطورة منطق السـلاح أنه يغري صاحبه باستخدام القوة المفرطة، والقضاء على الآخر، وليـس مجرد قهره والسـيطرة عليه، وهذا شـعور مدمـر. فإبادة المخالفيـن والقضاء عليهم بـدلاً من التعايش معهم يعنـي أننا أمام طفرة في النزوع العدائي فاقت كل ما سـبق من ميول عدوانية.

ويبرز هذه النزعة اللاإنسـانية اسـتخدام الأسـلحة الأشـد فتـكاً في الحـروب المعاصرة المعروفة بأسـلحة الدمار الشامل. فقد شهد القرن العشـرون أول استخدام للسلاح النووي عندمـا ألقت أمريكا قنبلتين على هيروشـيما ونجازاكي على الرغم مـن أن إلقاءهما لم يكن ضرورة عسـكرية؛ حيث إن اليابان كانت قد استعدت للاستسـلام. وتكرر استخدام أسلحة الدمار الشامل في الحروب الأخيرة؛ إذ تم استخدام اليورانيوم المنضب ضد الجيش العراقي في حرب الخليج الأولى أوائل التسـعينيات، ثم الفسفور الأبيض ضد المدنيين في الفلوجة عقب الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م.

ظهور فكر الإبادة يعد خطراً على البشـرية ويلقي بظلال قاتمة على مستقبل العالم. و«ثمة عناصر تسـم التشـكيل الحضاري الغربي الحديث جعلت الإبادة احتمالاً كامناً فيه، وليست مجرد مسـألة عرضية، وولدت داخله استعداداً للتخلص من العناصر غير المرغوب فيها عن طريق إبادتها بشكل منظم ومخطط ... وقد قام الإنسان الغربي بعملية الإبادة النازية وغيرها من عمليات الإبادة لا على الرغم من حضارته الغربية وحداثته وإنما بسببها». (٣٦)

وهذه النزعة الإبادية ازدادت رسـوخاً مـع النهضة الغربية التي كان من المفترض أن تكون أكثر إنسانية، وهذا يثير التساؤل، وكأن الإنسان الغربي تحديداً كلما تقدم مادياً تراجع إنسـانياً، وتهيمن عليه قيم أنانيـة مدمرة لخميرة الإنسـانية بداخله. يبدو أن «ظهـور النزعـة الإبادية هـو الرؤية الغربيـة الحديثة للكـون التـي يمكـن أن نصفها بأنهـا رؤيـة علمانية إمبريالية شاملة ».(٣٧)

هيمنـة الغـرب العسـكرية والسياسـية والثقافيـة أعطـت مشـروعية مزيفة لأفكار الصراع والرغبة في إبادة الآخر

إننـا اليوم نواجه تطـوراً مدمراً مـن الغرب يحمل نزعـة التخلص من الحضارات الأخرى. ومن حقنا « محاكمـة ثقافة وحضارة الغرب، على أسـاس دورها الهدَّام للثقافات الأخرى؛ طبقاً للفكرة الملعونة -الشـعب المختار- التي تم عبرها رفض الآخر وإنكاره حتى إبادته. الغرب يرفض ويدين المختلفين، وهو بهذا الرفض للأشكال الإنسانية الأخرى يحمل أسباب انهياره النهائي، ويضع مستقبل الإنسانية في خطر حقيقي».(٣٨)

إن هيمنة الغرب العسـكرية والسياسـية والثقافية أعطت مشـروعية مزيفـة لأفكار الصراع والرغبـة في إبادة الآخـر، بتقديمها في صور مقبولة من خلال الإعـلام والفنون، وتم تكرار الضـرب على هذا الوتر؛ لتبرير السـلوك العدواني وإعطائه مسـحة أخلاقية للتأثير في وعي الآخرين، ولإقناع الذات بصحة ما يرتكبه تهرباً من تأنيب الضمير .

ومـن يتابع الثقافة الغربيـة المعاصرة يلحظ تقديس الصراع كخيـار وحيد في التعامل مع الآخريـن. وتؤكد الفنـون والهوايات المعاصرة والظواهر الأخلاقيـة في الغرب أن الأجيال الجديـدة توارثت هذه الروح المتمردة، وسـيطرت عليها ذات الفكـرة، وكأنها كالدم يجري في العروق لا تندثر مع مرور الزمن.

٣ – الصراع والفنون:

الفنـون الغربية المعاصـرة على الرغم مما بها مـن تنوع وازدهار وإبداع؛ فـإن لها اهتماماً متزايداً بفكرة الصراع . فالإنسـان الغربي يهتم كثيراً بالقـوة البدنية الخارقة، وينظر بإعجاب للأعمـال العنيفة، ويألف رؤية الدماء ومشـاهد الألم. ولإرضاء هـذه الرغبة لدى الجمهور تضخ شـركات الإنتاج السـينمائي الغربية مظاهر وصور العنف وكأنها رسـالة سـماوية. إن الكثير من الأعمال الفنية هي تلك التي تدور حول القتل والدمار. قدمت السـينما الأمريكية للعالم شـخصيات «الكاوبوي، والسـوبرمان، وطرزان، وزورو، ورامبو» كنماذج للإنسـان الغربـي الـذي لا يُقهـر، ذي القوة المبهـرة، الذي يَقتل الآخريـن ولا يُقتل. يسـتطيع البطل الأمريكـي الانتصـار على عدد كبير مـن الخصوم ولا يُخدش. ويقدمـه الغرب مع كل ذلك على أنه بطل وليس قاتلاً.

ومن أغرب ما أنتجه الإعلام الغربي من نماذج تجسد موضوع الصراع والرغبة في استنزاف الآخرين، شـخصية مصاص الدماء «دراكولا» ؛ هذا الكائن الخرافي الذي لا يموت. يعيش على مص الدماء ولديه قوة خارقة. وهذه الشخصية ربما تعبر رمزياً عن نفسية من يعيش على الاستيلاء على ثروات الشعوب.

وحتـى عندما انهزمت أمريكا فـي حروبها مع فيتنام، اختارت السـينما شـخصية «رامبو» لتجسـد صراع الجندي الأمريكي مع نفسـه، ومع المجتمع ومع البشـرية جمعاء. ولم يكن لرامبو رفيق سوى السلاح، ولم يعرف وسيلة للتعامل مع الحياة إلا القوة والصراع.

وبجانب السـينما فإن الصراع لامس هوايات الشـباب. فإذا نظرنا إلى الموسـيقى الغربية المعاصرة نجد أنها أخذت أشـكالاً جديدة لم تكن موجودة من قبل. فالأمريكيون لم يكتفوا بهـذا الفـن كما هو، وإنما اخترعوا ألواناً من الموسـيقى العنيفة مثل هـارد روك، الميتاليك، والـروك آند رول. وأصبحت الموسـيقى الصاخبة التي تصم الآذان والتي تصاحبها حركات العنف هي الأكثر شـعبية. وحتى كلمات الأغاني فقدت معاني السلام والود وجسَّدت دائماً فكرة الصراع.

تحولـت الحفلات الموسـيقية إلى سـاحات لاسـتعراض العضلات والحـركات العنيفة التي تتخذ أشـكالاً هيسـتيرية في معظم الأحيان، وأصبحت طبول الحـرب المزعجة مكوناً

أساسياً في منظومة الآلات الموسيقية. وأصبح هذا النوع من الصخب الموسيقي يستقطب الجمهور الأكبر من المحبين للترفيه، ولم تعد الصالات الصغيرة تستوعب المشاركين فبدأت الفرق الموسيقية وكبار المغنين للفن العنيف ينظمون الحفلات في ملاعب كرة القدم والساحات الكبرى التي تسع عشرات الآلاف من الراغبين في التنفيس «الصراعي» على أنغام الموسيقى.

ووسط قرع الطبول والموسيقى المزعجة يتراقص جمهور كبير من البشر ويفرغون الطاقة في حركات عشوائية ويضرب بعضهم بعضاً دون اكتراث. وأصبح من المعتاد أن تشهد هذه الحفلات سقوط مصابين تحت الأقدام، وتعرض البعض لجروح وكسور، الأمر الذي ترتب عليه ظهور أطباء تخصصوا في علاج ضحايا الحفلات الموسيقية، والحضور الدائم بالقرب من المصابين في أرض الاشتباك على قرع الطبول، والانطلاق لممارسة عملهم وسط مخاطر الضرب من الراقصين المتصارعين.

فقد «أسس دكتور ريلمان في عام ١٩٧٢ مع أصدقائه مجموعة عيادات هايت أشبوري المجانية وهي عيادات لموسيقى الروك، أي مؤسسة علاجية تعالج المصابين في حفلات الروك. وقد كتب الدكتور ريلمان في سان خوسيه في كاليفورنيا، واصفاً ما يفعله فريق الروك (اللارسن) يهز الجموع في ملعب كرة السلة في جامعة الولاية. النغمات التي يصدرها جيتار الإيقاع ضربات تشبه ضربات الشاكوش. والأرض ليست سوى مكان دوران الشباب الراقص من متصببي العرق الذين يتدافعون ويلقون بأنفسهم فوق الآخرين. وفي مكان قريب بجانب الكواليس، ارتدى ديفيد ريلمان قفازاته البلاستكية، وبدأ فحص بعض المصابين. ها هو ذا شاب في الواحدة والعشرين من عمره، عاري الصدر، ومصاب بجرح يشبه عضة حديثة الإصابة. وتظهر إصابة بيده التي أزيلت من عليها طبقة الجلد، توضح أنه تلقى ركلة من البوت العسكري الذي يعتبر أحدث موضة بين الشباب». [٣٩]

وإذا تركنا الفنون سنجد أن هوايات الغربيين العنيفة برزت في مجال الرياضة أيضاً، إذ زادت شعبية الهوايات التي تتوافق مع هذه النزعة الصدامية. ومن الملفت أن الرياضات العنيفة التي لا تلقى حماساً كبيراً في أنحاء العالم نمت وانتشرت في الغرب. وهناك رياضات عنيفة عديدة توجد في الغرب فقط، ولا وجود لها في باقي الكرة الأرضية.

٤ - الرياضة وتفريغ العنف:

فقدت الرياضة بين ممارسيها حس الترفيه والمتعة، وتحولت إلى صراع من أجل النصر. ويعكس نوعُ المسابقات الرياضية التي تحظى بأكبر جمهور في الغرب ميولَ المواطن العادي ، وما يدور في مخيلته وعقله الباطن. من المعلوم أن كثيراً من الرياضات التي يعشقها الغربيون هي تلك التي تحمل علامات القسوة وملامح الصراع.

فقد نمت المصارعة الحرة التي تعد من الرياضات الأكثر عنفاً في الغرب بالمقارنة بباقي العالم، وهي بمثابة تقنين لتعارك «فتوات» الشوارع الأمريكية، ونقل القتال إلى حلبة وسط جمهور متحمس للأقوى مع وضع بعض الضوابط لإضفاء المشروعية على هذه الرياضة التي تتميز باستعراض القوة، وتنتهي بسحق أحد المتصارعين. نفس الأمر مع الملاكمة التي نمت في الغرب وصارت من أهم الرياضات. بل إن كرة القدم في أمريكا غير تلك التي يعرفها العالم، فهي تعتمد على المصارعة. ومن الملفت أن الولايات المتحدة التي تعلي من شأن الرياضات التي ترتبط بالقوة البدنية لا تجد لها قدماً في مسابقات كرة القدم التقليدية التي تعتبر اللعبة الشعبية الأولى في العالم.

وتفنن بعض الغربيين في اختراع مسابقة الصراع مع الحيوان بجانب صراع الإنسان مع الإنسان. وهذه الفكرة تجلت في مصارعة الثيران التي تقام لها مهرجانات سنوية في أسبانيا لإظهار تفوق الإنسان على الثور، وتنتهي بقتل الثيران بعد تعذيبها برشق السهام في ظهرها، وسط فرح وسرور الجماهير ! ويسبق هذه المسابقات مهرجانات تنطلق فيها الثيران في الشوارع خلف جمهور غير مُبَال بالألم وأحياناً القتل سحقاً تحت حوافر الثيران الهائجة أو طعناً بقرونها الحادة.

هذه الأمثلة تؤكد أن روح الصراع لدى الغربيين تظهر في كثير من المجالات، وأنها تصبغ العديد من مناحي الحياة. وحتى عندما بدءوا يستشرفون المستقبل كانت فكرة الصراع هي محور تفكيرهم أيضاً. ويبدو أن المدنية والتقدم التكنولوجي لم يجلبا الهدوء والطمأنينة وغرس الأمل في غد أفضل وأكثر أمناً.

رابعاً: المستقبل وسيادة فكرة الصراع

عندما بدأ الكُتَّاب والمفكرون الغربيون يتنبئون بالمستقبل، كان الصراع والصدام ثم

الدمار ما ينتظر البشرية من خلال أحلامهم وكتاباتهم وأعمالهم . لم يكتفوا بالصراع بين البشر على الأرض، وإنما تخيلوا اتساع نطاق المعارك بين الأرض والفضاء، بين البشر ومخلوقات قادمة من الكواكب الأخرى. طغت الرؤية السوداوية على كتابات الغربيين عن المستقبل. الكون – من وجهة نظرهم – مقبل على صدامات وحروب نووية. وبناء على هذا التصور انخرط الغرب في الإعداد لحرب الكواكب. ووضعت ميزانيات ضخمة لما عرف ببرامج حرب النجوم، على حساب رفاهية الإنسان؛ استعداداً لهذه المواجهات المستقبلية المتوهمة.

تجاوبت السينما الغربية بدورها مع هذه التصورات المستقبلية وقدمت الأفلام التي تدور حول حروب المستقبل والصدام الكوني، مثل «يوم الاستقلال» و«حرب النجوم» و«يوم القيامة»...إلخ. يغلب الطابع الدموي على كل ما تبثه وسائل الإعلام الغربية عند حديثها عن التصورات المستقبلية. فالأسلحة النووية هي المستخدمة في هذه المواجهات. أي الدمار التام للمدن والكواكب.

وتمادى العقل الغربي أيضاً في تنبؤاته للمستقبل بأفكار أشد تطرفاً لروح الصراع؛ إذ بدأت تظهر أفكار متعلقة بالبحث عن جينات الإجرام داخل جسم الإنسان لمعاقبة الأشخاص مسبقاً، وقبل أن يرتكبوا أفعالاً إجرامية – حسب تخيلهم – بمبرر إنقاذ البشر. وقد أنتجت السينما الأمريكية في هذا المجال فيلم Minority Report أو «تقرير الأقلية».

يتضح مما سبق أن فكرة الصراع واستخدام العنف التي يعكسها التفكير الغربي مزمنة، في الماضي والحاضر والمستقبل. فالحضارات القديمة والوسيطة والحديثة تغلب عليها الروح العدائية تجاه الآخرين، والسعي للسيطرة على الغير ثم إبادته إن كان ذلك ممكناً. وتؤكد عملية الرصد التاريخي أن النزعة للعدوان تزداد مع التحضر وليس العكس.

لكن هناك حقيقة لا جدال فيها، وهي أن الحروب التي عانى منها العالم جاءت مع انفراد الغرب بالقيادة وغياب قوى عالمية منافسة، خاصة الدولة الإسلامية مع انهيار الخلافة العثمانية. المسلمون وحدهم هم الذين استطاعوا تطويق النزعة العدوانية المسيطرة على الغرب، وحصروا الأوروبيين في منطقتهم الجغرافية وكبتوا الرغبة التوسعية عندهم. لقد فهم المسلمون روح الصراع المسيطرة على الغرب، وتعاملوا معها منذ بداية تأسيس الدولة الإسلامية. وكان الجهاد هو السلاح الوحيد لمواجهة هذه النزعة العدوانية، وبسبب جهاد

الطلب تم قهر روح الصراع العدائية عند الفرنجة وتقليم مخالبهم لفترة طويلة من الزمن.

ظهرت كراهية الغرب للإسلام مع أول ظهور له. واستمر هذا الموقف المعادي تجاه المسلمين حتى اليوم، واتخذ هذا العداء أبعاداً دينية سوغت لهم مشروعية الحرب ضد المسلمين، واعتبارهم خطراً في كل الأحوال، وأن العدوان على الأمة الإسلامية مباح في كل الأزمان.

خامساً : العلاقة مع الإسلام

بدأ صدام الغرب مع المسلمين منذ ظهور الدولة الإسلامية في عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم. لم تتسامح الإمبراطورية الرومانية مع الإسلام، بل تعاملت معه كعدو منذ البداية. وهي التي بادرت المسلمين بالعداء وواجهت الدعوة الجديدة بالرفض والمعاداة. وارتكبت الإمبراطورية الغربية في ذاك العصر خطأ تنكره الأعراف الدولية قديماً وحديثاً، عندما قتلوا مبعوث رسول الله. الأمر الذي تسبب في معركة مؤتة الشهيرة في جمادى الأولى من العام الثامن للهجرة.

لم تتسامح الإمبراطورية الرومانية مع الإسلام، بل تعاملت معه كعدو منذ البداية

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل إلى رؤساء القبائل والملوك يدعوهم إلى الإسلام، فبعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى الشام، إلى ملك الروم فاعترضه الغساسنة، وكانوا حلفاء الروم ، فقتلوه بالاتفاق مع هرقل – فيما يبدو من مسار الأحداث– استهزاء بالرسول الكريم ورسالته. كان قتل مبعوث الرسول موقفاً معادياً مقصوداً لاختبار تلك القوة الصاعدة في قلب صحراء الجزيرة واكتشاف مدى طموحها، وتحدياً لأتباع الدين الجديد. استعد الروم لرد فعل المسلمين بكامل قوتهم واستعانوا بحلفائهم من القبائل العربية الموالية لهم.

الملاحظ أنه «لم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره».[٤٠] رغم أن الشعوب الأخرى التي أرسل لها رسلاً كانت لها مواقف معادية من الإسلام أيضاً، إلا أنها لم تجاهر بمخالفة الأعراف كما فعل الروم.

بعـد ذلك وفي سـنوات قليلـة تقوض سـلطان الرومان فجأة علـى هذه الرقعة الواسـعة، وتقـوض أيضاً سـلطانها على نفوس الجماهيـر الغفيرة من رعاياها، الذين دخلوا الإسـلام طوعـاً، بل وأعجب من ذلك صاروا هم جند الإسـلام وحماة ثغـوره وعواصمه، وحصروا الروم في الشـمال، وجاهدت الدولة البيزنطية في الشمال أن تسترد ما ضاع، وذهب جهدها هدراً «وظل الصراع مشـتعلاً مدة خمسـة قرون بين النصرانية المحصورة في الشـمال وبين الإسلام الذي يتاخمها جنوباً، ولكن جيوش النصرانية لم تستطع أن تفعل شيئاً يُذكر» (٤١).

كان البيزنطيون يستغلون فترات ضعـف الدولـة الإسـلامية، أو تبدل الحكم ويهاجمون

لـم تتوقـف الهجمـات المتبادلـة بيـن المسـلمين والبيزنطييـن فـي فتـرة الخلافة الأمويـة على حدود الشام وشرق أوروبا. كان البيزنطيون يستغلون فترات ضعف الدولة الإسلامية، أو تبدل الحكم ويهاجمون، ولكـن محاولاتهـم كانت دائماً تبوء بالفشـل. وكان «انتقـال الحكم مـن الأمويـن إلى العباسـيين، وما صاحب ذلك من بعض اضطرابات داخلية- لاسيما في أطراف الدولة- سـاعد الإمبراطور قسـطنطين الخامس بن ليو الايسـوري على أن يفكر فـي مد تخوم الإمبراطورية في الشـرق على طول حدود المسـلمين في آسـيا الصغرى. من الملفـت للنظر أن هذا التخطيط العدواني من جانب الروم لا ينال من المؤرخين المسـلمين إلا التفاتة عابرة فيقولون: إنه في سـنة ثلاث وثلاثين ومائة خرج طاغية الروم قسـطنطين إلى ملطية .. وألح في حصارها وراح يرميها بالمنجنيق حتى استسـلمت.. ونزح أهلها عنها إلى بلاد الإسـلام وتفرقوا في الجزيرة ثم مضى البيزنطيون إلى قاليقلا، وهي منطقة الجبال فيما بين أرستاس والفرات الغربي وكان للعدو الغلبة». (٤٢)

كانت المناطق الحدودية بين المسلمين وأوروبا في حالة حرب دائمة بسبب هجمات الروم وصداماتهم مع الحكومات الإسـلامية المتعاقبة، لكن الغلبة دائماً كانت للدولة الإسلامية. فقد قوَّت صلابةُ القادة المسـلمين، وفريضةُ الجهاد ، وقوةُ العقيدة مناعةَ الدولة الإسـلامية التي اتسعت في القارات الثلاث، وجعلت حدودها منيعة من أي اختراق، وردت الأوروبيين بعيـداً عن الحدود. وظل الطرفان في حالة تدافـع فرضت نوعاً من توازن القوة بين الجانبين حال دون أن يستأصل فريق الفريق الآخر، ودون أن يسيطر طرف على الطرف الثاني.

إن صراع الغرب مع الإسلام لم يكن عسكرياً فقط، إنما اتخذ أشكالاً أخرى. فقد تم تشويه صورة الإسلام باختلاق الكثير من الأكاذيب « التي ساقها الكتاب البيزنطيون والأوروبيون، كما كان الهجوم عليه هدفاً للإمبراطورية البيزنطية وأوروبا سواء على الصعيد العقدي أو الصعيد الدعائي من جانب المؤرخين الأوروبيين المدعومين بعلماء الدين المسيحيين في البلاد الخاضعة لسيطرة المسلمين .. وقد تبعهم في نفس المنهج قساوسة أوروبيون بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي وحتى يومنا هذا.. كانت هذه الدعاية قائمة على أساطير وأكاذيب جديدة لكتاب لم يعدموا الجهل بالأحاديث التاريخية كما لم يحرموا موهبة تلفيق الأكاذيب. وكانت ثمرة هذه الدعاية ما اصطلح على تسميته منذ قرون في أوروبا باسم أسطورة محمد».(٤٣)

ما كتبه المستشرقون ضد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يوضح بجلاء كَمّ الكراهية وسوء النية، وقد شهد أرنيست رينان على تحامل أبناء جنسه وملته من المستشرقين على نبي الإسلام. يقول رينان: «لقد كتب المسيحيون تاريخاً غريباً عن محمد .. إنه تاريخ يمتلئ بالحقد والكراهية له، لقد ادعوا بأن محمداً كان يسجد لتمثال من الذهب كانت تخبئه الشياطين له، ولقد وصمه دانتي بالإلحاد في رواية الجحيم، وأصبح اسم محمد عنده، وعند غيره مرادفاً لكلمة كافر أو زنديق، ولقد كان محمد في نظر كُتّاب العصور الوسطى تارة ساحراً وتارة أخرى فاجراً شنيعاً ولصاً يسرق الإبل، وكاردينالا لم يفلح في أن يصبح بابا فاخترع ديناً جديداً أسماه الإسلام لينتقم به من أعدائه، وصارت سيرته رمزاً لكل الموبقات وموضوعاً لكل الحكايات الفظيعة».(٤٤)

ولم يحدث أن سعى الغرب لمراجعة مواقفه وتغيير أسلوب تعامله مع المسلمين، فموقفه العدائي هو الأصل الراسخ، وصراع الغرب مع الإسلام «هو صراع لا يمكن أن يصل إلى حل؛ لأنه صراع بين مواقف نهائية. إن الغرب يرى في الإسلام خطراً عليه، ثم إنه لا يعترف بأنه دين سماوي، دعنا مما يقال في المناسبات للمجاملة، إنه يرانا متخلفين ومكامن للإرهاب قد تنفجر فيه في أيّ وقت. العناصر الأكثر حكمة ترى رؤية أخرى لكن النتيجة لا تختلف؛ إذ إنها ترى أن الإسلام هو النظام الوحيد القادر على تقديم منظومة فكرية منافسة للغرب، وذلك يجعلهم يصلون إلى ذات النتيجة، وهي أن الإسلام دين خطر، ويجب مواجهته وتحجيمه».(٤٥)

ليـس معنى هذا أن الحضارات الأخرى ليس بها روح الصراع، إنما لم تكن ظاهرة مرضية سـادية كمـا هو واضـح بقوة في الحضـارة الغربية. فالحضـارات الأخـرى كان يغلب على معظمها الطابع الإنسـاني والسلمي. ولم تكن الروح الاسـتئصالية موجودة بها بهذا الشكل المرعب؛ إذ تعايشـت باقي الحضارات واستوعب بعضها بعضاً. فالحضارة الإسلامية على سبيل المثال تعاملت بعلم وعدل مع الشعوب والحضارات الأخرى ولم تلغها.

لكـن ثمة ملاحظة مهمـة، وهي أن عهـد الفتوحات الإسـلامية لم يسـجل مذابح ومآسٍ كالتي فعلها الغربيون مع شـعوب العالم. فالشـعوب استقبلت الإسلام طواعية بدون إجبار. وتسـامح المسـلمون مع من ظلوا على دياناتهم، ولم يكرهوهم على الدخول في الإسـلام. كانت المعارك قليلة بالمقارنة بالمساحات الشاسعة التي فتحتها الجيوش الإسلامية، كما أن الخسـائر البشـرية للمعارك تكاد لا تُذكر بالمقارنة مع معارك الغرب. إن مجموع القتلى في الفتوحات الإسلامية كلها ربما لا يساوي خسائر معركة صغيرة من معارك الأوروبيين.

و«لن تنسى ذاكرة التاريخ ما وقع في فتح سمرقند عندما استعدى أهلها عمر بن عبد العزيز علـى القائـد الفاتح؛ لأنـه دخل عليهـم ديارهم قبل دعوتهم إلى الإسـلام ، فأمـر قاضيه أن يُنصفهـم ، فقضى ببطلان الفتح ، وإخراج الجيوش الفاتحة المنتصرة خارج سـمرقند، حتى تسـتوفي إجراءات الفتح كافة، كما جاءت في النصوص الشرعية ، وانسحبت القوات فعلاً ، وكان ذلك سبباً في إسلام أغلب أهل سمرقند!».(٤٦)

وبعكـس مـا فعلـه الغرب مـع باقي الحضـارات والأمم مـن تدميـر وإفناء، فقـد «كانت للمسـلمين إسـهامات كثيرة في الثقافة الأوروبية. فلقد احتفظوا بعدد كبير من المخطوطات الإغريقية القديمة حتى غدت في متناول يد العلماء الأوروبيين. ولهم أيضاً إسـهامات كثيرة في دراسة الرياضيات والطب، كما أدخلوا النظام العددي العربي المعمول به حتى يومنا هذا فـي أوروبا... بدأت العلـوم البحتة والتطبيقية عند العرب والمسـلمين بحركة الترجمة التي نشطت في أواخر القرن الأول الهجري، السادس الميلادي، واستمرت في الازدهار والعطاء حتى بداية القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي. ولم يكن العرب في ترجمتهم لتراث الأمـم التي أخذوا عنها العلوم الطبيعية نَقَلَةً جامدين، لكنهـم أضافوا إليها كثيراً، وجعلوا ما توصـل إليه غيرهم مقدمة أساسـية لأبحاثهم. وقد أبدعوا في بعـض العلوم. وكانت بواعث ذلك ما بثّه الدين الإسـلامي من أفكار، وما أحدثه في نفوس معتنقيه من حب العلم والتأمّل

فـي الكون، إضافة لتشـجيع الحكام الذين أحبوا العلم وأكرمـوا العلماء على الإبداع. ثم إن الفتوحات الإسـلامية كانت عامـل التقاء بين الثقافة العربية وثقافات الشـعوب التي دخلت الإسـلام. كمـا أن حاجـة العرب إلى علوم ليسـت عندهـم جعلتهم يقبلون علـى الترجمة. وحيث إن العلم من توابع الاسـتقرار والحضارة، فما أن اسـتقرت الدولة العربية الإسـلامية وازدهـرت سياسـياً واقتصادياً حتى اتجهت النفوس إلى الحركـة الفكرية؛ فتُرجمت الكتب الإغريقية والفارسـية والسـريانية والقبطية والكلدانية، ونُقلت ذخائرها في العلوم إلى العربية».(٤٧)

اختـل التـوازن بين المسـلمين والأوروبييـن مع ضعف الدولة الإسلامية وسقوط الخلافة

لا يمكـن إغفال أن ترجمة بعض الكتب الفلسـفية ونشـرها علـى نطاق واسـع كان لـه نتائج سـلبية في حينها، خاصة قبل أن ينتبه علماء المسلمين لهذا النوع مـن الفكـر الجدلي. وقد سـببت هـذه الكتب بعض الفتـن في البداية، أبرزها ما حـدث في عهد المأمون صاحـب بدعة خلق القرآن الذي نشـطت في عهـده حركة الترجمة، وتأثـر بالكتب اليونانية حتى إنه كان يحلم بأرسـطو في المنام، وهو الذي سجن الإمام أحمد بن حنبل الذي تصدى لهـذه البدعة. «ولقد دخل المأمون- في عنف- الخصومةَ الخاصة بخلق القرآن، وأصبحت المسألة بالنسبة له، على أعظم جانب من الأهمية، ومن الجائز أنه رأى مما يساعده في نصرة رأيه: ترجمة الكتب اليونانية الخاصة بالإلهيات».(٤٨)

تصدي علماء الإسلام كالغزالي وابن تيمية وغيرهما فيما بعد للأفكار الفلسفية المتعارضة مع الإسلام، وكان دورهما بارزًا في إنهاء حالة الجدل التي شغلت بعض المسلمين فترة من الزمان.

لكن التوازن بين المسلمين والأوروبيين اختل مع ضعف الدولة الإسلامية، وتراخي قبضة الحكم لاتساع الرقعة الجغرافية، ودخول أمم وأعراق لم يتح لها الالتحام الكامل مع القلب لتقويه وتقوى به. عندها ظهر فكر الصراع الغربي مجدداً ليهدد الجسـد الإسـلامي بأشـكال أكثر ضراوة ظهرت في الحملات الصليبية ثم في الحملات الاسـتعمارية التي كانت البداية لغزو العالم كله.

سادساً: تصدير الصراع

اندفع الأوروبيون لغزو العالم مع تفوق الغرب عسكرياً وحيازة الأسلحة الأكثر فتكاً. وداسوا في طريقهم شعوباً وحضارات، واستخدموا القوة لحكم الدول الرافضة لهم. يشهد التاريخ المعاصر ظهور ثلاث موجات متتالية من الهجمات الغربية على العالم، وتتلخص هذه الهجمات في الحروب الصليبية والحملات الاستعمارية، ثم الحروب الاستباقية. ما حدث في هذه المحطات من خسائر كلف البشرية الكثير على حساب عقائدها وأمنها ورفاهتها. أشاعت تلك الحروب الكراهية والعداءات الدينية، وبذرت التقسيمات الجغرافية والسياسية في حروب بين الجغرافيات والأعراق لازالت ترهق الشعوب حتى اليوم.

كان الدافع الديني هو المحرك الأبرز وراء الحروب الصليبية؛ إذ توحدت أوروبا تحت راية الصليب. أما في الموجة التالية، وهي الموجة الاستعمارية فقد اختلط الدافع الديني بالاقتصادي. وفي المواجهة المعاصرة –ولعلها الأخيرة– اختلط الديني بالاقتصادي مع الرغبة في الهيمنة والسيطرة على العالم في الحروب الاستباقية. ولعله من المهم أن نبرز كيف ساهم فكر الصراع في هذه الموجات الغربية الثلاث، وهو ما سيوضحه الجزء التالي من هذا البحث.

١ – الحملات الصليبية:

تعتبر الحملات الصليبية خلال القرنين الخامس والسابع الهجريين، الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين أكبر اختراق للعالم الإسلامي منذ قيام الدولة الإسلامية. فقد ضرب الضعف الخلافة في ذلك الوقت وتمزقت أوصال الدولة؛ فاستغل الأوروبيون الفرصة لينقضوا على قلب الأمة. فرَّغ الأوروبيون طاقة الصراع المتغلغلة داخلهم الحملات الصليبية ضد المسلمين. وقد «نظم الغزاة القادمون من أوروبا الغربية ثماني حملات رئيسية، فيما بين ٤٩٠ و٦٦٩هـ، ١٠٩٦ و١٢٧٠م. وتعد تلك الفترة هي فترة توسع اقتصادي لأوروبا الغربية وزيادة قواتها المسلحة. وكان الصليبيون جزءاً من الحركات التوسعية النصرانية الواسعة. وكسب الصليبيون بعض المعارك، وأسسوا ممالك صليبية على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط». (٤٩)

اتفق الأوروبيون رغم التناقضات والخلافات بينهم حيث «انطلق الرهبان يجوبون شمال

أوروبا ليدخلوا أهلها من الهمج الهامج في النصرانية.. وجاءت سنة ١٠٩٦م، (٤٨٩هـ) وجيشت الجيوش من الهمج الهامج من النرمنديين والصقالبة والسكسون بقيادة الرهبان وملوك الإقطاع». (٥٠)

كانت الحملات الصليبية تهدف أيضاً لتنصير الأوروبيين الوثنيين الذين كانوا ينتشرون في ربوع القارة. وقد حاربت الحملات الصليبية في بدايتها القبائل الأوروبية التي رفضت اعتناق الديانة، أو التي كانت مسيحية لكنها ترفض المذهب السائد، وتم القضاء عليها.

يسجل التاريخ أن الأوروبيين في حملاتهم الصليبية لم يتورعوا عن ارتكاب المذابح ضد كل من وقف أمامهم. فقد استهدفت هذه الحروب «الشعوب المنشقة كالأريوسيين والكاتار، لإبادتها .. وامتدت هذه الحروب شرقاً وغرباً لنشر مسيحيتها بالسيف والمذابح وبمحاكم التفتيش؛ وما أكثر المراجع التي تتناول هذا التاريخ الدامي الذي وصم الحضارة الغربية المتعصبة» (٥١).

اتسمت الحملات الصليبية بطابع ديني للبعض أو أنها استخدمت الدين للنهب وإطفاء شهوة الصراع للبعض الآخر، واقتصرت على منطقة جغرافية محدودة. نتج عنها تفكيك الشام؛ إذ أقيمت به أربعة ممالك صليبية. وقد استطاع صلاح الدين الأيوبي هزيمة الصليبيين في معركة حطين (٥٨٣ هـ - ١١٨٧م). وأعطى الأمان لمن تبقى من الأوروبيين في القدس وبعض المدن؛ فعادت إلى سابق عهدها تنعم بالسلام. لكن الرغبة في العدوان تواصلت. ومع النهضة الصناعية وتنامي الرغبة في السيطرة على ثروات العالم، تطور الهجوم الأوروبي واتسع، فبدأت الحملات العسكرية ضد العالم كله، وخرجت الجيوش من دول أوروبا مرة أخرى في الموجة الثانية لغزو الكرة الأرضية فيما عُرف بالحملات الاستعمارية. في هذه الحملات اختلطت الدوافع الدينية مع الاحتياجات الاقتصادية، فكانت أكبر عملية غزو وسطو ونهب يشهدها العالم، ولازالت الآثار المترتبة عليها مستمرة حتى الآن.

٢ - الاستعمار:

ترجمت الحملات الاستعمارية فكرة الصراع عند الغربيين. فقد أظهرت روح العدوان بأوضح صورها، وكشفت عن الرغبة في السيطرة وامتلاك الأرض والبشر. استباح الأوروبيون كل شيء، واحتلوا دول العالم وقاتلوا شعوبها ونهبوا ثرواتها، واستعبدوا أمم إفريقيا وساقوا

الملايين من السود إلى العالم الجديد.

وقد « أعطى الغرب الاستعماري، منذ خمسة قرون مثال التطرف الأكثر فتكاً، وهو الادعاء بامتلاك الثقافة الوحيدة الحقيقية، الدين العالمي الوحيد، نموذج التنمية الوحيد، مع نفي أو تدمير الثقافات الأخرى، الديانات الأخرى، النماذج الأخرى للتنمية ... برر الغرب تسلطه على العالم، ونهبه لثرواته، وقمعه لحرياته باختلاقات كثيرة، منها ما كان باسم رسالته في قيادة العالم، ومسئوليته في نشر الحضارة، بل وفي بعض الأحيان نشر المسيحية». (٥٢)

كان انتقال الخلافة الإسلامية من المماليك «مصر» إلى العثمانيين في طرف الأمة الشمالي «تركيا» له تأثيره. ترتب على هذا الانتقال تركز القوة شمالاً، وضعف القلب «العالم العربي»، وامتد الضعف إلى الأطراف فأصيبت بالرخاوة وضعفت مناعتها.

ركز الأوروبيون جهدهم العسكري تجاه الجنوب الغربي مع عجزهم عن مواجهة العثمانيين في الشرق، فسقطت الأندلس بعد فتح القسطنطينية بأربعين عاماً، وارتكب الأوروبيون فظاعات ضد المسلمين، أبرزها ما عُرف بـ «محاكم التفتيش»، وأنهوا الوجود الإسلامي بعد أن حكمها الإسلام ثمانية قرون. كان انتصار الأوروبيين على المسلمين في الأندلس وسقوط غرناطة في ١٤٩٢م بداية لانكسار لم يجبر حتى الآن؛ إذ انطلقت جيوش الصليبيين من بلاد أوروبا تطوق العالم الإسلامي، ولتبدأ مرحلة أخرى من الحروب باحتلال البلاد الإسلامية وغزو العالم.

اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح الذي فتح الطريق أمام الأوروبيين للانطلاق حول إفريقيا وآسيا. « وعندما ذهب البرتغاليون إلى الهند كانت إسلامية، وكانت تُحكم حكماً إسلامياً في ذلك التاريخ. ولم يكن الوعي غائباً عند المماليك، وإنما كانوا يدركون أنها حركة التفاف حول العالم الإسلامي، ليس فقط لتحويل طرق التجارة، وإنما كانوا يدركون المخاطر الاستراتيجية التي يبتغيها الغرب، ولذلك لم يكن غريباً أن تخرج الجيوش المملوكية من مصر لتقاتل البرتغاليين في الهند في ذلك التاريخ، وهزمت الجيوش المملوكية في ١٥٠٤ أي بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح بأقل من ٧ سنوات». (٥٣)

كان الهجوم على العالم شاملاً. وتم تقسيم الأمم بين الغزاة الذين استباحوا في طريقهم كل شيء. وانتقل القراصنة الأوروبيون من السطو على السفن في البحار والمحيطات إلى السطو على الجغرافيا والإنسان ذاته. و«بدأت مرحلة ضرب قلب العالم الإسلامي، فنجد

خريطة رقم (٢) : الأوروبيون وتصدير الصراع باسم الاستعمار



المصدر: http: / /www.eurohist.com . تظهر الخريطة اجتياح الأوروبيين للقارة الإفريقية وتقسيمها بين القوى الاستعمارية، وتشير إلى أن أثيوبيا وليبيريا لم تخضعا للاحتلال في هذا الوقت ، فأثيوبيا لدورها الديني كقلعة قديمة للمسيحية، وليبيريا أنشأها المستعمرون للعبيد السود الأمريكيين المسيحيين المحررين ، إلا أن أثيوبيا خضعت للاستعمار الإيطالي ١٩٣٦ الذي تم طرده ١٩٤١ بمساعدة بريطانيا.

بونابرت الذي جاء إلى مصر في عام ١٧٩٨ ، ثم فريزر في ١٨٠٧ ، والجزائر احتُلت في ١٨٣٠ ، ثم عدن ١٨٣٨ م ، ثم تونس ١٨٨١ ، ثم مصر ١٨٨٢، ثم ليبيا ١٩١١، ثم المغرب ١٩١٢، ثم عموم البلوى في سايكس بيكو التي قسمت ما بقي من عالمنا العربي ١٩١٦، وثم الذروة عند سقوط الرمز «الدولة العثمانية » في ١٩٢٤ . إذن صراع الغرب مع الإسلام منذ خمسمائة عام على طرد الإسلام من أوروبا، وعلى بدء هذه الغزوة الصليبية التي بدأت بالالتفاف حول العالم الإسلامي حتى جاء في العشرينيات وعلى أعتاب الحرب العالمية الأولى حيث أعلن سقوط كافة أنحاء العالم الإسلامي تقريباً أمام الهيمنة الغربية ». (٥٤)

هنا لا يمكــن إغفال بُعْد مهم ، ونحن نتناول الحملات الاســتعمارية، فمع «وجود أطماع اقتصادية هائلة لأوروبا في الشرق الغني بالخامات والموارد؛ فإن هذا لا ينبغي أن يُخفي عنا مجموعة من الملاحظات في هذا الشأن:

الأولــى: أن الباعــث الصليبــي كان هو الباعــث الأول الذي حــرَّك أوروبا إلى الاســتيلاء علــى العالم الإســلامي، كما هــو ظاهر مــن رحلتي فاســكوداجاما وماجــلان، والرحلات الاستكشــافية الأخرى في إفريقيا خاصة – التي حملت المبشــرين بكميات هائلة إلى أماكن لم يكن الاستغلال الاقتصادي فيها محدد المعالم أول الأمر، وإن كان قد حدث على نطاق واسع فيما بعد، حين اكتشــف المحتلون مصادر الثــروة وأخذوا في استغلالها.

الباعث الصليبي كان هو المحرك الأول الــذي حــرك أوروبــا إلى الاستيلاء على العالم الإسلامي

الثانيــة: أن التحــرك الاقتصــادي الأول من أوروبا نحو الشرق كان ضمن أهدافه حرمان المسلمين من مصادر قوتهم لإضعافهم، وهو هدف فكري وعقدي وليس اقتصادياً فقط، وتتخذ له جميع الوســائل، وما الوســيلة الاقتصادية إلا واحدة من هذه الوسائل فحسب.

الثالثة: أنه حين برز العامل الاقتصادي في حياة أوروبا فيما بعد، وأصبح – في ظاهر الأمر– هو المحرك الأول لجميع تصرفاتها، بقي هناك فارق واضح بين «الاستعمار الاقتصادي» في بلاد الإسلام، والاستعمار الاقتصادي في البلاد غير الإسلامية التي استولوا عليها في مرحلة التوسع وتكوين الإمبراطوريات. ومن المهم ملاحظة هذا الفارق الذي يحتاج إلى تفسير.

كان الاستعمار الغربي لا يتعرض لعقائد الناس وأفكارهم وتقاليدهم في البلاد غير الإسلامية بشــيء من العنف على الإطلاق، مكتفياً بما يتســرب إلى حياتهم تدريجياً من التأثير الناشئ من رغبة المغلوب في تقليد الغالب. أما في البلاد الإسلامية فقد كانت هناك دائماً تدبيرات وترتيبات يقصد بها إزالة مظاهر الحياة الإسلامية، ومحاولة سحق الإسلام في نفوس المسلمين بالعنف، أو صرفهم عنه صرفاً خبيثاً ماكراً بوسائل أخرى غير العنف» (٥٥).

حــرص الغرب منذ الحملات الاســتعمارية وحتى الآن على الهيمنــة على العالم، خاصة الإســلامي. ورغــم ســحب وتخفيــف الوجــود العســكري إبــان حــركات الاســتقلال في

الخمسينيات والستينيات، فإن الغرب نفذ العديد من الإجراءات التي حافظت على استمرار الهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية. لكن مع ظهور وتنامي الحركات الإسلامية، وتصاعد الدعوة للاستقلال الكامل عن الغرب، وإعادة بناء الدولة الإسلامية، بدأ الغرب يكثف من وجوده العسكري لفرض سيطرته. وتطور عندئذ الأمر إلى المبادأة بالاعتداء على المسلمين لإجهاض أي قوة ناشئة يمكن البناء عليها.

٣- الحروب الاستباقية:

بدأ العالم الغربي المدمن للصراع يبحث عن عدو جديد مع نهاية الحرب الباردة، وتفكك الاتحاد السوفييتي، في بداية التسعينيات، فاختار الإسلام. من أجل ذلك عقدت المؤتمرات والندوات، وصدرت التصريحات تلو التصريحات، ثم أُعلنت الاستراتيجيات والخطط لحشد التأييد الغربي للمواجهة مع العدو الجديد، الذي بالغوا في تضخيم خطره لتجهيز حلبة المصارعة للقضاء عليه.

إن الغرب في حاجة دائماً إلى عدو خارجي، ولذلك تم استدعاء الإسلام والأمة الإسلامية مجدداً إلى الصراع. كان هناك إصرار من العديد من الدوائر والأوساط السياسية الأمريكية والغربية على افتعال معركة مع الإسلام وتصويره على أنه التهديد الخطير القادم من الشرق، وتوج هذا الإصرار بمقالة صمويل هانتنجتون «صدام الحضارات» والتي نشرها في مجلة فورين أفيرز، ثم أصدرها في كتاب مستقل. تقوم فرضية هذه المقالة على أن الحرب العالمية القادمة ستكون بين الحضارات العالمية، وحصرها بين الحضارة العربية والإسلامية والحضارة المسيحية الغربية، وأن أسس الصراع القادم ستكون ثقافية ومرتبطة بالموضوع الثابت عبر القرون وهو موضوع الهوية الحضارية للأمم، والتي تتأسس في بُعْدها البنيوي الثابت على الدين.

لوَّح هانتنجتون -أبرز منظري الصدام والصراع المعاصرين- في مقالته السابقة بخطر الحركات الإسلامية، والدعوة إلى مواجهتها قبل أن تمتلك أدوات القوة العسكرية. والمشكلة الحقيقية أن مقالة هانتنجتون قد لقيت تأييداً وتنفيذاً من أصحاب القرار في الولايات المتحدة، وبدأت تسيطر بشكل كبير على تفكيرهم، وانتقلت هذه التصورات إلى وسائل الإعلام الأمريكية التي بدأت بتعزيز صورة نمطية عن الحركات الإسلامية في

المخيلة الاجتماعية الأمريكية ضد الإسلام والمسلمين.

كان لروح الصراع دورها في تطوير الهجوم واستهداف الدول الإسلامية التي ترفض التبعية الكاملة للغرب وتضييق الخناق عليها. وفي هذا الإطار وضعت أمريكا قائمة حمراء لهذه الدول أطلقت عليها اسم «الدول المارقة». وتم ضم دولتين غير إسلاميتين «كوبا وكوريا الشمالية» للقائمة، لتمردهما على الهيمنة الغربية وللضغط عليهما، ومنعهما من تقديم أي دعم في مجال التسليح للدول الإسلامية.

أ- الدول المارقة:

دفعت روح الصراع الغرب لاختيار مجموعة من الدول النامية؛ لتكون هدفاً للتصارع معها، وتم إعلان الحرب على دول ضعيفة تسعى للاستقلال. بدأت الولايات المتحدة في التحرش بالدول الإسلامية بشكل خاص، وقد بدأت أمريكا هذه الدول بالعدوان بحشد الدول الغربية المتحالفة معها لحصارها وتضييق الخناق عليها. وفي هذا الإطار هاجمت أمريكا ليبيا والسودان وأفغانستان والعراق بالصواريخ خلال الثمانينيات والتسعينيات، ثم غزو الدولتين الأخيرتين واحتلالهما عسكرياً مع بداية الألفية الجديدة.

تسببت روح الصراع في غزو عسكري كامل لأفغانستان والعراق في عهد إدارة بوش؛ بمشاركة تحالف من معظم دول الغرب. وتم استدعاء نظرية «الحرب العادلة» مرة أخرى؛ لإعطاء مشروعية للصراع ولتبرير ضرب الدول الإسلامية، بحجة منع حدوث تقاطع بين الجماعات الإسلامية وحكومات هذه الدول المتمردة وتهديد الغرب.

وأصبح مصطلح «الحرب العادلة» ودلالاته الدينية هو السائد على لسان قادة الغرب المعاصرين والنخبة بمعظم أطيافها؛ إذ لوحظ أن الرغبة في الصراع ليست مرتبطة فقط بالحكومات الغربية وصناع القرار السياسي فيها، إنما موجودة لدى النخبة ورموز الهيئات الشعبية. فقد أعد معهد القيم بالولايات المتحدة الأمريكية بياناً في فبراير ٢٠٠٢، وقَّع عليه ستون من كبار المفكرين والفلاسفة والشخصيات بعنوان «على أي أساس نقاتل» أيدوا فيه حرب أمريكا ضد المسلمين، ووصفوها بأنها «الحرب العادلة».[٥٦]

عبر الموقعون عن الرؤية الصراعية التي تسيطر على العقل الغربي، وأعطوا العدوان على مدن المسلمين الغطاء والمشروعية الأخلاقية. قال المثقفون الأمريكيون: « إنا نعلم بمقتضى

العقـل ومن خلال التأمـل الدقيق في الأخلاق أن في بعض الأحيان يكون أوّل وأهم ما يقام به لمواجهة الشر هو إيقافه ، وفي بعض الأوقات لا يكون الشروع في الحرب جائزاً فحسب بل واجباً أخلاقياً »(٥٧)

تكشـف الأسـباب التي يطرحها المثقفون الأمريكيون أنهم لا يسـتطيعون الفكاك من أسر الصـراع، وتوضـح ضعف الحس الإنسـاني الذي يظهر فـي مناحي أخـرى، بتبرير العدوان علـى المدنيين بحجـة صيانة الأبرياء. لقد اسـتندوا إلى التراث الديني القديـم فقد رأوا «أن المبـرر الأخلاقي الرئيس للحرب هو صيانة الأبرياء من الضرر الأكيد. وأشـاروا إلى كتاب أوغسـطين (مدينـة الإله) واسـتندوا إلى ما قاله وهو يقـرر المعنى الذي أتى به سـقراط: إن الأحسـن للفرد النصراني أن يتأذى بالضرر من أن يـؤذي غيره به، ولكن هل يجدر بصاحب المسـؤولية الأخلاقيـة أن يُلـزم غيره مـن الأبرياء بترك الدفـاع عن أنفسـهم؟ الجواب عند أوغسـتين وعامة أصحاب فكرة الحرب العادلة هو أن ذلـك الإلزام غير صحيح. إذا أقيمت الحجة على أن الأبرياء الذين لا يسـتطيعون الدفاع عن أنفسـهم سيصيبهم ضرر هائل إن لم تستخدم قوة قاهرة لإيقافه. في هذه الحالة يدعونا المبدأ الأخلاقي لحب الجار إلى استخدام القوة» .(٥٨)

وعندمـا رد مجموعة من العلماء والمفكرين المسـلمين في بيان بعنوان «على أي أسـاس نتعايـش؟» (٥٩) طرحـوا فيه فكـرة التعايش بـدلاً من الحـرب، لم يتجـاوب الطرف الآخر وتمسكوا بموقفهم المؤيد للعدوان وللحرب ضد المسلمين.

لكـن ومـع حب الغرب للصراع؛ فإنه لا يسـتطيع شـن حروب عسـكرية ضـد كل الدول الإسـلامية فـي وقت واحد. لـذا فإنه ينوع أسـاليب الحرب تحت الاضطـرار، ويُجَيِّش كل مـا هو متاح في الإجراءات الاسـتباقية. في هذا الإطار ابتكر الغرب الحرب على ما يسـمى «الإرهاب» لاحتواء ظاهرة عودة المسـلمين إلى الدين، ومواجهة الحركات الإسلامية التي تريد إعادة الخلافة الإسلامية مرة أخرى كوعاء يستعيد القوة الإسلامية.

ب- مطاردة الإسلاميين :

لم تبدأ الصحوة الإسلامية المعاصرة أي مواجهة أو صراع مع أمريكا والغرب منذ ظهورها الحديث. بل إن الجهاد في أفغانستان، وتقاطع أهداف الإسلاميين بإسقاط الحكم الشيوعي

مع مصالح أمريكا بالخلاص من عدوها اللدود جعل أمريكا تؤيد المجاهدين إلى أن انتهت الحرب. بعد ذلك انقلبت عليهم وسعت لتحجيمهم؛ خشية أن يتمكنوا من إقامة حكومات إسلامية تهدد استقرار مشروع الهيمنة الغربية المفروض بقوة السلاح على المسلمين.

سعت الولايات المتحدة الأمريكية منذ الثمانينيات لحشد تحالف عالمي للصراع مع المد الإسلامي تحت شعار «مكافحة الإرهاب»، ورصدت ميزانيات ضخمة وشكلت منظمات أمنية وأطراً مؤسسية لتجنيد العالم في معركة المطاردة والمحاصرة. وحرَّضت أمريكا دولاً وحكومات للانخراط معها في هذه الحرب، وقدمت المعونات والخبرات الفنية لتكتيف دول العالم وإجبارها على المشاركة. كما استطاعت الولايات المتحدة إدخال المنظمات الدولية في الصراع، واستخدمت الأمم المتحدة لإصدار التشريعات والمواثيق لإلزام العالم بالتورط في المعركة.

ج- منع تكون نواة إسلامية:

في إطار صراع الغرب مع الإسلام، تستهدف الهيمنة الغربية على المسلمين فيما تستهدف استمرار التبعية السياسية والاقتصادية والثقافية، ومنع عودة الإسلام للحكم. ولا يعني انسحاب الدول الاستعمارية أن الدول التي استُعمرت قد تحررت من هيمنة المستعمر. الغرب لا يُخفي أنه لن يتراخى في مواجهة أي كيان يحتمل أن يكون نواة لتجمع إسلامي، يعيد الدولة الإسلامية مرة أخرى. ولهذا فإن الدول قليلة العدد التي لها ميول استقلالية أو صبغة إسلامية تعاني من الحصار والتطويق بوسائل عدة، ويعمل الغرب على عزلها عن محيطها.

من هنا فإن صعود الإسلام إلى الحكم وبناء الدولة على تعاليم العقيدة الإسلامية يشكل خطراً لا يمكن التهاون معه من وجهة النظر الغربية. لهذا فإن المبادرة من الغرب بالصدام والمواجهة كانت مبكرة لمنع تشكيل النواة. وهذا التوجه القديم الجديد يأتي؛ لأن « الدول الغربية تدرك الخطورة الكامنة في منطقتنا، فهي تدرك قيمة الإسلام كرسالة حضارية توحيدية أكثر من إدراك أغلبنا لهذه الأهمية، وهي تدرك خطورة الكتلة الجغرافية السكانية لمجموعة الدول الإسلامية، وتدرك أثر هذه الكتلة ورسالتها على التوازنات العالمية إذا هيئ لها أن تنهض، ولهذا فإن عيونهم مصوبة علينا بشكل خاص».[٦٠]

د- صعود البروتستانتية والحروب:

لا يمكـن إغفال الدور الـذي لعبه الدين فـي إذكاء الصراع عند الغـرب، خاصة المذهب البروتسـتانتي بطبعتـه الجديدة، وتأثيره العدائي على السياسـة الغربية. يعتقد البروتسـتانت في العودة الثانية للمسـيح والحكم الألفي الذي ورد في سـفر الرؤيا، وهذه العودة -حسب فهمهـم- تسـبقها حروب مدمـرة تنتهي بحـرب هرمجدون في فلسـطين التي سـيقتل فيها الملاييـن، وأن هذه الحرب وهذا الدمار أمر حتمي كي يعود المسـيح ويحكم الأرض لمدة ألف عام. ويعتقد البروتستانت أن تجميع يهود العالم وإقامة الهيكل مقدمة لهذه العودة.

إن «الاعتقاد بأن عودة اليهود متسـقة مع النبوءة ليس رأيـاً محابياً لليهود حسـبما يبـدو؛ لأن بقيـة النبوءة تشير إلى تحول اليهود القادم إلى المسيحية، وبذلك يوفـون بأحـد الشـروط الضروريـة للقـدوم الثانـي للمسيح».(٦١)

> صعود الإسـلام إلـى الحكم وبناء الدولة على تعاليم الإسلام يشكل خطـرًا لا يمكـن التهـاون معه من وجهة النظر الغربية

وكانـت هذه العقيـدة التي اعتنقهـا الإنجليز وراء ظهـور وعـد بلفـور، ومنـح فلسـطين للعصابـات اليهودية بقوة السـلاح والاحتلال العسـكري. والدعم الغربي اللامحدود للكيان الصهيوني ليس لأسباب مصلحية، أو تكفيراً عن جرائم النازي كما يردد البعض، وإنما لأسباب عقائدية سابقة على جلبهم إلى الأرض المقدسة بقرون طويلة.

ففـي «منتصف عام ١٦٠٠، بدأ البروتسـتانت كتابة معاهدات تعلـن بأن على جميع اليهود مغادرة أوروبا إلى فلسـطين. وأعلن أوليفر كرومويل -بصفته راعي الكومنولث البريطاني، الـذي أنشـئ حديثـاً- أن الوجـود اليهودي في فلسـطين هـو الـذي يمهد للمجـيء الثاني للمسيح».(٦٢)

وقـد «اعتبـر اللاهوتيون البروتسـتانت، مع بداية القرن السـابع عشـر خاصة فـي إنجلترا وسـكوتلندا وألمانيا وهولنـدا أن التاريخ الإنسـاني قد قارب على النهايـة، ومن ثم فإن من واجب الدول المسـيحية أن تسـتعد لتلك الأحداث العظمى. وانعكـس كل ذلك، في إعادة الاعتبار لليهود من منطلق دورهم المركزي في خطة الرب لنهاية التاريخ».(٦٣)

وحملت أمريكا لواء البروتستانتية بعد تراجع الإمبراطورية البريطانية، وواصل المؤمنون بعقيدة نهاية الزمان في الولايات المتحدة العمل لتنفيذ ما يزعمون أنها « خطة الرب» بإشعال الحروب في كل مكان وخاصة ضد العالم الإسلامي.

لا خلاف بين الأمريكيين المتدينين والأمريكيين العلمانيين. فهم سواء في اعتناق ذات العقيدة. لا فرق بين آراء جيري فالويل وبات روبرتسون وغيرهما من قادة اليمين المسيحي، وآراء مفكرين علمانيين مثل فرانسيس فوكوياما صاحب (نهاية التاريخ) وصمويل هنتنجتون صاحب (صدام الحضارات) فالفريق الأول يؤصل لحرب هرمجدون برؤية دينية بينما يتبنى الفريق الثاني ذات العقيدة ولكن برؤية علمانية.

لكن وصول المحافظين الجدد لقيادة الولايات المتحدة في بداية الألفية الثالثة. زاد من اندفاع الغرب تجاه الصدام؛ واتسعت المواجهة مع الدول الإسلامية بشكل غير مسبوق. وظهر دور الدين كمحرِّض وكمحفِّز للغرب في التحالف العسكري والمشاركة في تطويق المسلمين.

إن الموقف الغربي المعادي تجاه الاسلام لم يكن أبداً رد فعل، وليس وليد أحداث استثنائية. لقد كانت روح الصراع هي التي تدفعهم دوماً لشن الحروب. هكذا فعل البيزنطيون الأرثوذكس ومن بعدهم، جاءت (الكاثوليكية المحاربة) لتجعل خلاص المسيحيين في الحرب، ثم رفعت البروتستانتية شعار تدمير الكون لعودة المسيح. إن «كهنتهم يبشرون بإله الغضب والانتقام والحرب. إنهم يعلنون أن الله لا يريدنا أن نعمل من أجل السلام، إنما يطلب منا أن نشن حرباً نووية تدمر الكرة الأرضية».(٦٤)

من هنا فإن الحروب الأخيرة التي أشعلها الغرب عقب أحداث سبتمبر ٢٠٠١ لا يمكن النظر إليها على أنها رد فعل، أو عزلها عن المعتقد والسلوك الصراعي للغرب مع المسلمين. فالعداوة سابقة على هذا التاريخ. والاستعداد للحرب كان مُبَيَّتاً؛ سواء وقعت أحداث سبتمبر أم لا. لكن التوقيت ربما كان سيتأخر قليلاً لو أن ما حدث لم يحدث. وحتى لو كانت تلك التفجيرات ذريعة؛ فإن الانتقام من دول وشعوب بالشكل المأساوي الذي تم لا نجد له تفسيراً إلا أن روح الصراع تجعل الغرب ينزع إلى الاعتداء والإبادة في كل الأحوال.

ولم يعد مقنعاً سعي الغربيين لمسح ما تختزنه الذاكرة من حقائق حول مسئوليتهم عن الصدام مع المسلمين. إن أحداث سبتمبر نتيجة وليست سبباً، وهي رد فعل من منفذيها.

فكل المؤشرات والوقائع السابقة لتفجير برجي مبنى التجارة العالمي كانت تصب حتماً تجاه عمليات من هذا النوع. إنها نتاج طبيعي لتاريخ من الصراع والصدام. لكن الملفت للانتباه أن الغرب لم يتناس حب الصراع رغم كل ما حدث ولم يتعامل مع الأسباب، وإنما تعامل مع النتيجة. وبدلاً من السعي لنزع فتيل الأسباب راح يصب المزيد من البنزين على النار. وبدلاً من مراجعة السياسات التي أفضت إلى هذه التفجيرات ذهب إلى الاتجاه الآخر ورفض الاعتراف بأنه السبب، وأنه الظالم وليس المظلوم، وأنه الجاني وليس المجني عليه.

ولم يستوعب الغرب الدرس وساقته الرغبة في المصارعة إلى السير في ذات الطريق الذي يولد ردود أفعال ربما أكثر ضراوة. ويبدو أن الغرب لم يعد يسمع إلا إن شعر بأن قوته لم تعد تجدي نفعاً، ولم تعد تُخيف. وهذا ما بدا من متابعة سير الحرب في أفغانستان والعراق؛ حيث بدأ الغربيون يستوعبون أن خيار الحرب يُسبب خسائر ضخمة وآثاراً معاكسة مؤلمة، لا يحتملون استمرارها فترات طويلة.

سابعاً: حصد الكراهية وظاهرة الانتحار

تفوُّق الغرب العسكري أغراه بالعدوان، وتسببت عقلية الصراع في توريط الغرب في مغامرات عسكرية، فوجئ أنها فاقت قدرته على تحمل اتساعها وامتدادها. فمع كثرة اعتداءات الغرب على المسلمين، ظهرت نقاط الضعف لديه، في نفس الوقت الذي تجلت فيه عناصر القوة في الطرف الآخر. وقد ثبت أن الإفراط في استخدام القوة يضعف تأثيرها مع الوقت، ولا تجلب الصراعات النصر دوماً. فلكل قوة طاقة قصوى بعدها تضعف وتتراجع. ويبين تاريخ الأمم والشعوب أن الدول القوية تأتيها فترات تتراخى وتنتهي. ولا يعني استخدام السلاح الباطش دليل قوة، فقد يكون دليل ضعف أيضاً.

إن إدمان الغرب للصراع واستخدامه لأسلحته ضد الشعوب، والدفع بأبنائه للقتال في العالم الإسلامي دليل على التراجع وليس القوة. فالدول الغربية منذ منح الاستقلال الصوري للدول المستعمَرة كانت تمرر سياساتها وتدير العالم بالإشارة. وكانت العلاقات الدبلوماسية كافية لإملاء الشروط وتنفيذ الأوامر. لكن هذه القبضة الاستعمارية والهيمنة بدأت تضعف مع عودة المسلمين إلى الدين، وتنامي نزعة التمرد ضد التبعية، فاضطر الغرب إلى تنفيذ سياسة الحصار الاقتصادي والسياسي «العراق، ليبيا، السودان، وأفغانستان» لكن

هذا الأسلوب فقد تأثيره مع الوقت ولم يؤد المطلوب، فبدأ بالاعتداء والقصف من الجو «العراق، وأفغانستان» فاتسع التمرد، فاضطر الغرب إلى الغزو العسكري وتحمل تبعة ذلك من خسائر في الأموال والأرواح.

دفعت روح الصراع الغرب لغزو العراق وأفغانستان لتقديم عبرة وأمثولة لباقي المسلمين، فإذا بالنتائج عكسية. فقد تسبب هذا التقطيع في أوصال الدولتين وتجريب أسلحة الدمار الفتاكة في شعبيهما، وانكشاف الوجه العدائي للغرب، تسبب في ردة فعل في الجانب الإسلامي. أيقظت القذائف والصواريخ المتساقطة فوق المدن المسلمة روح المقاومة وأحيت فكرة الجهاد. وغرقت أمريكا الجريحة بتدمير برجيها في وحل المعارك، ووجدت نفسها متورطة في مستنقع يأكل أبناءها. وتحول النصر السريع في البداية إلى انكسار واستنزاف فيما بعد. وبدلاً من الاحتفال بالانتصار أصبحت الأمنية هي الانسحاب والفرار.

لقد تسببت روح الصراع العدائية لدى الغرب في ولادة روح المقاومة في الجانب الإسلامي، وقوبلت القوات الغازية بروح قتالية لم تكن تتوقعها، ولم تستطع ترسانة الأسلحة الأمريكية كسر عزيمة المقاومين الذين يقاتلون بأسلحة لا تُقارن بما لدى الجيوش الغربية المتحالفة. لم يرهب الهجوم الأمريكي الغربي المسلمين بقدر ما قوَّى قدرتهم على التحمل وامتصاص الضربات وأفقد الجيوش الغازية هيبتها. ومقابل حشود الجيوش الغربية المتدفقة على مناطق القتال، احتشدت حركات المقاومة الإسلامية هي الأخرى، التي تشكلت من جنسيات عربية وإسلامية عدة وكونت جبهة مضادة، وقد تسبب توسيع ساحة الصراع في خروج المعارك عن السيطرة.

إن القدرة على شن الحروب لا يعني القدرة على إنهائها. ربما كانت الصورايخ والقنابل والقصف من الجو مؤلمة للخصم لكنها غير كافية لإنهاء المعركة. فهناك عوامل أخرى تحسم المعارك بجانب الأسلحة والتخطيط العسكري، فقد ظهر العنصر البشري كعامل حيوي في تحقيق النصر. هذا الصمود البشري والتفاني في القتال ربما لا يظهر في بداية المعارك لكن مع استمرار واتساع الحروب التي تحركها عقلية صراعية لا هدف لها سوى قهر الآخرين، تولد عناصر بشرية لا تتأثر بقوة الخصم ولا تبالي بقدرته التسليحية، وتفرض حقائق جديدة تقلب المتعارف عليه في الحسابات الاستراتيجية.

ثامناً : الغرب ومرض الصراع

يثبت التاريخ القديم والحديث أننا أمام كيان يعاني من مرض مزمن. إن الغرب مريض بداء الولع بالصراع مع الآخر والعدوان عليه، وهذا المرض الذي ألمَّ بالغرب تسبب في استنزاف العالم والغربيين أيضاً، وبالتالي على العالم أن يساعد هذا المريض كي يتعافى. أول مرحلة للعلاج أن نشخص المرض، وأن نوضح للمريض حقيقة مرضه. وفي حالة رفض الغرب الاعتراف بذنوبه في حق البشرية وفي حق نفسه، ليس أمام شعوب العالم إلا التكاتف والتصدي له، ووقف عدوانه وعزله ووقف خطره.

إن استمرار مرض الغرب لا يعني أنه سيظل يواصل تأثيره العدائي إلى الأبد، ونحن نرى الآن اتساع ظاهرة التمرد على الهيمنة الغربية، في أمريكا اللاتينية وفي آسيا. لكن التمرد الإسلامي هو الأهم بالنسبة لنا وللعالم، فهو الكفيل بردع هذه الروح الشريرة. وها نحن نشعر بأن جسد العالم الإسلامي قد بدأ يُكَوِّن الأجسام المضادة ويُقَوِّي جهازه المناعي لكبح جنون «فيروس الصراع». وتبدو بقوة إرهاصات عودة الإسلام مرة أخرى كمحرك وكقائد لاستعادة الدولة الإسلامية التي أصبحت ضرورة حتمية لحماية المسلمين وغيرهم، ولإعادة التوازن العالمي المختل.

في المقابل لم يعد لدى الغرب القوة القادرة على مواصلة الصراعات فترات طويلة بسبب الانهيار الذي أصاب الإنسان الغربي الذي سيطرت عليه المادية وملكت كيانه، وجعلته غير قادر على التضحية والقتال. ربما في فترات سابقة كانت المعارك تنتهي لصالح الغرب لفارق القوة ولانهزام الخصوم، لكن اليوم اختلفت الأمور مع كثرة الحروب وبروز إرادة المقاومة وحب الموت عند المسلمين. وهنا الفرق بين إرادتين: إرادة محبة للمتعة والحياة [العاجلة] وإرادة محبة للقتال [والدار الآخرة]. وعند الصدام تنهار الأولى أمام الثانية.

مقترحات للتعامل مع عقدة الصراع:

إن هذا البحث هو محاولة لكشف طبيعة العدوان في العقلية الغربية وتشخيص المرض بشكل سليم؛ لأن تشخيص هذه الظاهرة خطوة رئيسة نحو التعامل معها. ولن يستطيع البحث طرح تصور شامل لمواجهة روح الصراع الغربية. فهذا يحتاج إلى جهد آخر؛ لأن طبيعة العلاج تحتاج إلى جهود واجتهادات عديدة؛ لخطورة المرض وللطبيعة المعقدة للمريض

نفسه. وقد يختلف العلاج من دولة لأخرى حسب قربها أو بعدها، أو حسب قوتها وضعفها. ويحتاج العلاج إلى جهد الأفراد أيضاً، حسب ملامسة كل منهم وقربه من المرض. لكن ومع هذا يمكن طرح بعض الخطوط العامة التي تساهم في بلورة خطط المواجهة لهذا المرض:

* كشف روح الصراع عند الغرب وإظهار مرضه المزمن حتى يتعامل معه الآخرون بما يفيدهم وبما يؤدي إلى عزل الكيان المريض وتحجيم خطره.

* ضرورة وقف انتشار روح العداء الغربية ومنع تصديرها إلى شعوب العالم، بتقوية المقاومة ضدها، وإحياء حالة الممانعة فكرياً واجتماعياً وسياسياً، ووقف حملات تحسين صورة الغرب التي يقوم بها البعض عن عمد وسوء نية أو عن جهل وسذاجة بإظهار مزاياه فقط، والتكتم على المشكلات الحقيقية التي يعاني منها.

* البدء بتحرير البؤر التي تعاني من تصدير الصراع إليها في العالم الإسلامي؛ سواء من تدخلات خارجية في صورة احتلال أو هيمنة، أو تدخلات غير مباشرة في صورة محاولات تغيير السياسات والنظم الاجتماعية.

* تقديم الدعم لحركات المقاومة لمواصلة الجهاد ضد الغزاة المحتلين، وعدم المبالغة في التفاؤل الذي يؤدي إلى التقصير في تقديم العون والمساندة بزعم قرب النصر، فحركات المقاومة هي طليعة التحرك الإسلامي الشامل لإعادة الاعتبار للأمة واستعادة استقلالها ومواجهة أعدائها.

* السعي لتوحيد الجهود لإعادة الكيان الإسلامي «دولة الخلافة» لرد الاعتداء وصد العدوان الغربي وتحجيمه وإعادته إلى حدوده القديمة والسيطرة عليه. وهذا الكيان قد يتخذ شكلاً جديداً، وليس بالضرورة أن يتطابق مع أنماط الحكم السابقة في التاريخ الإسلامي.

* التواصل مع الكيانات الحضارية الأخرى في آسيا وأمريكا اللاتينية وإفريقيا؛ لبناء جبهة واسعة للتصدي لروح الصراع الغربية.

* التحاور والتفاهم مع بعض الغربيين الذين يشعرون بخطورة المرض، ويشاركون في أداء أدوار إيجابية ضد روح الصراع السائدة في الغرب.

الخلاصة

تفاوتت درجة التسامح والتدافع بين حضارات الكون على مر التاريخ، وبدت حضارة الغرب وكأنها لا تميل إلى التسامح مع الآخرين. إن الرغبة في الصراع التي سيطرت على العقلية الأوروبية ثم الأمريكية بارزة منذ ظهور أول حضارة في ذلك الجزء من العالم. وكان لوجود الحضارات القوية في الشرق دوره في التصدي لجنوح الغرب، وكبح جماح هذه العقلية الصدامية. لكن ضعف هذه الحضارات وهيمنة الغرب خاصة مع انكسار دولة الإسلام نتج عنه كوارث إنسانية عانى منها العالم. لقد أطلق الغربيون لأنفسهم العنان واجتاحوا العالم، وشنوا الحروب ونشروا الصراعات التي ولدت العداوات في كل مكان.

يمكن القول أنه ما لم يعاد التوازن للعالم بعودة الأقطاب الحضارية الأخرى، واستعادة الدولة الإسلامية لموقعها كحائط صد ضد الجنوح، والتصدي لتغوُّل الحضارة الغربية، فإن معاناة البشرية ستستمر.

إن التدافع سنة إلهية لحفظ الحياة على الكرة الأرضية. والتدافع وسيلة لحفظ الحقوق وحماية الشعوب ومنع الجور والتصدي للغرور المدمر لتحقيق التوازن. وهذا التوازن هو الذي يشكل رادعاً للحضارات المتمردة.

إن الغرب كيان مريض، وتسبب ذلك المرض في نشأة حضارة معجونة بالصراع وحب العدوان منذ ولادتها. تشبعت بهذه الروح المتمردة التي تلبستها. منكرة لكل ما عداها. إنها حضارة متخاصمة مع الكون. لا تعرف غير ذاتها. ولا تعترف بغيرها. تبدأ الآخرين بالصدام. لا تعرف العيش بدون عدو. حياتها قائمة على صناعة الخصم واختراعه. إن لم تجد عدواً يتقاتل أبناؤها مع بعضهم البعض. حضارة باسمها اكتوى كثير من شعوب العالم وذاق الويلات.

إننا أمام كيان يعاني من مرض حب الصراع ومدمن للاعتداء وعاشق للقتل. وهذا المريض، كأي مريض، يحتاج إلى علاج لإنقاذ البشرية منه، ولإنقاذه هو أيضاً من براثن ذلك المرض.

الهوامش:

١- د.صلاح الصاوي، من الجوانب الفقهية في علاقة الإسلام بالغرب: ورقة مقدمة لمؤتمر «نحن والآخر»، عقد بالكويت ٢٠٠٦ ص٢ .
٢- فرانسوا بونيون، الحرب العادلة وحرب العدوان، المجلة الدولية للصليب الأحمر، مختارات٢٠٠٢.
٣ – هوميروس، الإلياذة ، دار العلم ، الطبعة الخامسة ١٩٨٢، بيروت ، ص ١٦ و١٧ .
٤ – المرجع السابق ص ٢٤١و٢٤٢.
٥ – المرجع السابق ص ١١١ .
٦ – المرجع السابق ص ٦٤ .
٧ – المرجع السابق ص ٦٥ .
٨ – المرجع السابق ص ٢٤٢ .
٩ – المرجع السابق ص ٢٤٥ .
١٠– المرجع السابق ص ٢٤٥ .
١١ – الموسوعة العربية العالمية، موقعها على الإنترنت : http: / /www.mawsoah.net
١٢– المرجع السابق.
١٣– المرجع السابق.
١٤ – د. حامد سلطان، أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية ص ١٠٢ .
١٥– المرجع السابق ص ١٠٢.
١٦– الموسوعة العربية العالمية .
١٧– مايكل كوربت وجوليا ميتشل كوربت، الدين والسياسة في الولايات المتحدة، دار الشروق ص١٢٣.
١٨ – فرانسوا بونيون، الحرب العادلة وحرب العدوان، مرجع سابق.
١٩–د.محمد عارف، صعود البروتستانتية الإيفانجليكية في أمريكا، الشروق الدولية ص١٩١،١٩٢.
٢٠ – الموسوعة العربية العالمية.
٢١ – انكارتا http: / /encarta.msn.com
٢٢ –المرجع السابق.
٢٣ – ويكيبيديا http: / /en.wikipedia.org

٢٤ – الموسوعة العربية العالمية.
٢٥ – روجيه جارودي،أمريكا طليعة الانحطاط، دار الشروق ص ٤٩ .
٢٦– المطران برتولومي دي لاس كازاس، المسيحية والسيف:وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية ص٢٦.
٢٧ –المرجع السابق ص٢٧ .
٢٨ –المرجع السابق ص٢٨ .
٢٩ – المرجع السابق ص٦١ .
٣٠ – ترفيتان تودوروف، فتح أمريكا مسألة الآخر، دار العالم الثالث ص١٦٤.
٣١ – منير العكش، أمريكا والكنعانيون الحمر، نسخة إلكترونية على الإنترنت. وللكاتب مجموعة من الكتب والدراسات القيمة، تكشف المخفي من تاريخ إبادة الهنود على يد المستعمرين الأوروبيين.
٣٢ – المرجع السابق ص٦٢و٦٤.
٣٣ – ترفيتان تودوروف، فتح أمريكا مسألة الآخر، دار العالم الثالث ص ١٥٥.
٣٤ – الموسوعة العربية العالمية .
٣٥ – د. باسم خفاجي، تشيني وهواية القتل ١٤ فبراير ٢٠٠٦م، القاهرة.
٣٦ – د. عبد الوهاب المسيري، دفاع عن الإنسان، دار الشروق، الطبعة الأولى ص ١٧٩.
٣٧ – المرجع السابق ص ١٧٩ .
٣٨ – روجيه جارودي، أمريكا طليعة الانحطاط، دار الشروق ص ١٤٢.
٣٩ –المرجع السابق ص ٩٨.
٤٠ – ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، الجزء الثالث، فصل غزوة مؤتة.
٤١ – محمود شاكر ، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، طبعة دار الهلال، ص ٣٣.
٤٢ – د. حسن حبشي، تاريخ العالم الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٢٠٧.
٤٣ – د. عبد الرحمن بدوي، دفاع عن محمد ، الدار العالمية للكتب والنشر ص ٣.
٤٤ – المرجع السابق ص ٥ و٦ .
٤٥ – د. محمد عباس، بل هي حرب على الإسلام، مدبولي ص ٢٧٨ .
٤٦ – د.صلاح الصاوي، من الجوانب الفقهية في علاقة الإسلام بالغرب، ورقة مقدمة لمؤتمر «نحن والآخر»، عقد بالكويت ٢٠٠٦ ص٤.
٤٧ – الموسوعة العربية العالمية .
٤٨ – د. عبد الحليم محمود، التفكير الفلسفي في الإسلام ص ١٦٤.

٤٩ – الموسوعة العربية العالمية .
٥٠ – محمود شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، دار الهلال، ص ٣٦.
٥١ – د.زينب عبد العزيز، الديني والسياسي في التعامل الغربي مع القرآن، الشعب الإلكترونية ١٣ يناير ٢٠٠٦.
٥٢ – روجيه جارودي، حفارو القبور، دار الشروق ص ٢٢و٢٣ .
٥٣ – د. محمد عمارة، الجديد في المخطط الغربي تجاه المسلمين، دار الوفاء .
٥٤ – المرجع السابق.
٥٥ – محمد قطب، واقعنا المعاصر، دار الشروق، ص ١٦١ .
٥٦ – بيان أصدره معهد القيم الأمريكية في نيويورك، وقع عليه ستون مثقفاً أمريكياً، يمثلون أطياف عديدة من المجتمع الأمريكي؛ أيدوا فيه الحرب وأعطوها صفة العدالة. من الموقعين صامويل هانتنجتون، وفرانسيس فوكوياما .
٥٧ – المرجع السابق.
٥٨ – المرجع السابق.
٥٩ – صدر البيان في أبريل ٢٠٠٢، وقع عليه ١٧٥ من علماء وأساتذة الجامعات والشخصيات العامة في المملكة السعودية.
٦٠ – عادل حسين، الإسلام دين وحضارة.
٦١– كليفورد لونجلي، الشعب المختار: الأسطورة التي شكلت إنجلترا وأمريكا، الشروق الدولية ص ١٨ .
٦٢– رضا هلال، المسيح اليهودي ونهاية العالم، الشروق الدولية، الطبعة الثالثة ص ٦٥.
٦٣– المرجع السابق ص ٦٦.
٦٤– غريس هالسل، يد الله: لماذا تضحي الولايات المتحدة بمصالحها من أجل إسرائيل، دار الشروق ص١١١.

رقم الإيداع